محمد وعصره

بعض موضوعات هذا الكتاب

- الحياة والحضارات العربية الاولى
- الانساب العربية وتاريخها
- الحياة في مكة قبل الاسلام
- الحياه الاجتماعية في العالم قبل الاسلام
- السياسة الخارجية العربية
- هل كان محمد امياً ؟
- اليهودية في بلاد العرب

تأليف

محمد ابو النصر

بيروت تشرين الاول ١٩٤٩

كلمة المؤلف

يعرض هذا الكتاب لالوان جديدة من التاريخ العربي ، خصوصاً هذه الفترة من تاريخ العرب التي تقدمت فجر الاسلام .

فيعرض مثلاً للحياة العربية المتحضرة المستقرة منها والبدوية الثائرة عرضاً رقيقاً ، ثم يبحث تاريخ الانساب العربية والحياة الاجتماعية ، ويناقش المستشرقين مذاهبهم وآراءهم حتى اذا استقام له ذلك ، تبسط في تاريخ مكة تبسطاً يفرضه البحث ويقتضيه خطورة المطلب ، وما كان من شأنها وشأن اهلها ، وكيف كانوا يعيشون ويتاجرون ويحكمون .

فاذا انتهى من ذلك تناول الحياة الاجتماعية في العالم قبل ظهور الاسلام ، ثم عرض لفجر الدعوة وامية محمد بن عبد الله ، عرضاً يجمع بين الجدة والفائدة ، ويجلو للقارىء ما غمض من ابحاث لم يجلوها المؤرخون السابقون الا على قدر .. كما يبحث في الوقت نفسه اثر المسيحية واليهودية في الجزيرة وما كان لها من شأن وخطر ...

وفي مرجوي ان يجد هذا الكتاب من القراء ما وجده زملاؤه من تقدير وعناية ، وان يقع فيه المتتبعون لتاريخ العرب في هذه الفترة على بعض الفائدة ...

المؤلف

بيروت ١٥ تشرين الاول ١٩٤٩

— ١ —

قبل ظهور محمد

الجزيرة وخصائصها

فرضت الجزيرة العربية على سكانها نوعاً من الحياة ، كان من الصعب على العرب ان يتحرروا منه ، او يفرضوا لانفسهم نوعاً غيره ...

وكانت الاكثرية من سكان الجزيرة مجبرة حتماً على الحياة البدوية ، لان الارض التي تصلح للزراعة قليلة جداً ، والمطر المتقطع الذي يتنزل هنا تارة ، وهناك تارة اخرى ، يفرض على الرعاة البدو التنقل من مكان الى آخر طلباً للكلأ والماء ، مع مـــا يستدعي ذلك من عراك وعناء للحصول على مقومات الحياة الاولى .

واما سكان المدن في الجزيرة فانهم وان اختلفوا عن البدو بما تفرضه عليهم بيئتهم المستقرة من طراز جديد للحياة ، إلا انهم في الواقع كانوا متأثرين بالحياة البدوية التي حولهم ، متأثرين الى حد بعيد بالتفكير البدوي نفسه في الشعر وغير الشعر من الوان الفنون الادبية التي كانت تجد ارضاً خصبة في هذه الصحراء الملتهبة الجياشة ...

والتاريخ نفسه يدلنا على ان الجماعات العربية التي كانت في الصحراء العربية كانوا ينعمون بشيء كثير من التفكير الصادق السليم ، بخلاف غيرهم من الامم التي كانت تعيش في صحراوات اخرى على غرار صحراء الجزيرة محلاً وجدباً ، كالزنوج والعبيد في افريقيا مثلاً .

ويتساءل « نولدكة » المستشرق الالماني الشهير فيما اذا كان عرب الجزيرة المتأخرين يتصلون بصلة من النسب بهؤلاء العرب الذين نزلوا مـا

بين النهرين ، والذين نسمع ذكرهم في التوراة حيث يطلق عليهم اسم الاسماعيليين وغير الاسماعيليين ثم يخرج من تساؤله هذا فيقول : انهم يشابهون بعضهم شبهاً عظيماً ...

والواقع ان ابن الجزيرة يحب ان يحرث ما لم يزرع ، فلا يرى كبير امر في الاستمتاع بما ليس له ، ولا يرى عظيم شأن في استلاب ما هو لغيره وسواه ... وكذلك نراه على اطراف الجزيرة يغتصب الحقول النضرة ، والمزارع الجميلة والماشية الوفيرة ..

واما سكان المدن في الجزيرة فقد كان من المفروض عليهم الاتفاق مع القبائل العربية الضاربة حولهم اذا ما ارادوا نقل تجاراتهم من مكان الى آخر ، وهذه الاتفاقات كانت كثيرة وعديدة ، وكان العربي يحافظ عليها كل المحافظة ...

واما ان الجزيرة العربية موطن الساميين ، وموطن هذه الجماعات العربية السامية التي غزت ما بين النهرين وسوريا ومصر ، فامر لا يزال مدار بحث المستشرقين حتى يومنا هذا ، وان كان اكثرهم يذهب الى ان الجزيرة العربية هي موطن الامم السامية ما في ذلك شك ولا ريب.

والعرب الى ذلك قسمان قسم تولته الحضارة بنسماتها ، كسكان اليمن ومن نزل من العرب اطراف الشام والعراق ، وقسم استقر في ارض الجزيرة ففرضت عليه حياتها ، وفرضت عليه البداوة وقسوة العيش ، وكان من شأن عرب الجنوب في اليمن ان اسسوا فيها عدة دول من معين وسبأ وحمير ، وامتد سلطان هذه الدول — والاولى بصورة خاصة — الى شواطىء البحر المتوسط وشواطىء الخليج العجمي ، وكانت دولة تجارة وسلام لا فتح ولا حرب ، وقد اثبتت الحفريات الاخيرة انه قد نشأ بين هذه الدول الملوك الفاتحون ، والتجار المتنقلون ، كما انهم نقلوا

التجارة من مشرق الارض الى مغربها ، ومن مغربها الى مشرقها، وقد بنوا من المدن العامرة والقصور العجيبة والقلاع والسدود والجسور ما تدهش آثارها ، وتدل على ما وصل اليه عرب اليمن من حضارة وعمران وثراء ...

والمؤرخون من الاغريق وغيرهم في هذا العصر — المائة الثالثة قبل المسيح — كانوا يعتبرون العرب شعباً متوحشاً ، ويذكرون فيما يذكرونه عن العرب ترويجاً لرأيهم هذا ، انهم كانوا لا يعرفون القمح ، وانهم يعيشون على اللحوم والالبان ، وهذا صحيح في بعض القبائل العربية دون البعض الآخر ، ومنذ مائة سنة فقط كان هناك قبائل في الجزيرة خصوصاً في شبه جزيرة سينا ، لا تحصل على الخبز إلا نادراً .

والثابت اليوم انه لما جاء الاسلام كان العرب يرجعون بانسابهم الى اصول : ثلاثة مضر وربيعة واليمن وقد اخذ شعراء هذه القبائل وكل يفخر بنسبه وامجاد قبيلته ، حتى اقحموها في الاسلام واستغلوها في السياسة والحزبيات فنراها قوية الاثر بليغة الشأن في عهد بني امية والعباسيين والاندلسيين .

وكان افراد القبيلة يتضامنون اشد ما كان التضامن ، ينصرون اخاهم ظالماً او مظلوماً ، يسمى بذمتهم ادناهم وهم يد على من سواهم ، هذه حالة العربي مع اهله وابنه واخيه وابن عمه وافراد قبيلته ، فاذا تشعبت بطون القبيلة الواحدة تنافس افراد كل بطن في الشرف والثروة ، ووقفوا لبعضهم بعضاً بالمرصاد ، وقد يبلغ العداء اشده وتراق الدماء بسبب هذه المنافسة ، والبدوي شجاع كريم وشجاعته تتجلى في تاريخه الماضي وفي كثرة من نازلهم وقاتلهم من الناس ، واما كرمه فيتجلى في نحر الجزور للضيف واعانة البائس الفقير ، وان يعطي اكثر مما

يأخذ ، وان يغشى الوغى ويعف عند المغنم ...

ولقد دعاهم الكرم ان يأكلوا كثيراً ويشربوا كثيراً وبلادهم مجدبة قليلة الانتاج فكان حقاً عليهم ان يتصلوا باهل الشام والعراق واليمن وهم اهل حضارة وزراعة ورخاء يستعينون بهم على جدب ارضهم وقسوة اقليمهم ...

اما المرأة البدوية فكانت تشارك الرجل في كل شؤون الحياة تحتطب وتجلب الماء ، وتحلب الماشية ، وتنسج المسكن والملبس ، ولما كانت ضعيفة وكانت اذا سبتها قبيلة مخاصمة انزلت العار بقبيلتها فقد سقط مقامها وانحطت منزلتها ، وكانت بعض القبائل تكره النساء فاذا بشروا احدهم بالانثى ، ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، وبعضهم كان يدفنها وهي حية .

ولقد استقامت للعرب حضارة سالفة ، فشا امرها في اليمن وغير اليمن كما قدمنا ، وحدثنا عنها مؤرخو اليونان الاقدمون بشيء كثير من الدهشة والاعجاب ، وامكن لهؤلاء القوم الذين كانوا تجاراً ينقلون متاجر المجاورين وغير المجاورين من الامم الى اقطار العالم حتى الهند ، والذين كانوا حماة للتجارة من غزو المعتدين ، ان يلموا بطرف من حضارات الجماعات التي كانت تقوم حولهم في ما بين النهرين وفينيقيا ومصر والشام وغيرها من الامصار التي استقامت فيها حضارة سالفة بعيدة المدى في العمران رائعة المظاهر في سالفات الازمان .

ومما لا جدال فيه ان الارض في الجزيرة العربية اليوم غيرها في ماضيات الايام ، وانها في الماضي كانت اكثر خصباً ثم تناولتها النوازل الجغرافية بكثير من الجفاف حتى اصبحت جرداء قاحلة ، والعمران انما يقوم في الارض الخصبة وعلى الماء وضفاف الانهر والبحار ، فلا يعجبن القارىء بعد ذلك اذا تبدلت الارض غير الارض ، واذا تدنت الحضارة

وانهار العمران فان هذه كلها من لوازم المواطن الخصبة والمياه الوفيرة.

اما اثر الحضارة في الادب العربي من نظيم ونثير قبل الاسلام فمن الثابت اليوم ان العرب كانوا ينعمون بحياة شعرية ادبية رائعة ، وليس ادل على ذلك من شعر الشعراء الذين ما تزال حتى اليوم نردد شعرهم ونحفظ قصيدهم ، ونتغنى بمدائحهم ووصفهم ، والشعر العربي في هذا العصر الجاهلي ينعم بصفة خاصة لا مثيل لها ، وهي هذا الصدق والاخلاص في تصوير الوان الحياة تصويراً اقل ما يقال فيه انه ما يزال حتى اليوم اساساً لدراسة التاريخ العربي في الجاهلية ...

تفرق القبائل العربية

والعرب الى ذلك قبائل شتى ، ترجع في اصلها الى شعبين عظيمين هما قحطان وعدنان .

وموطن القحطانيين بلاد اليمن ، وقد تشعبت قبائله وبطونه من سبأ ابن يشجب بن يعرب بن قحطان ، ومنهم بطون حمير واشهرهم قضاعة ، وبطون كهلان واشهرهم همدان ، وطيء ، ومذحج ، وكندة ، ولخم ، والازد الذين منهم الاوس والخزرج ، واولاد جفنة الذين ملكوا الشام.

ولما اخذت بلاد اليمن بالانحطاط اخذ اهلها يهاجرون الى ارجاء البلاد العربية ، فسار ثعلبة بن عمرو نحو الحجاز ، وانتهى الى المدينة فغلب اهلها وكان اكثرهم من اليهود ، وسار حارثة بن عمرو — وهو خزاعة — بمن معه فاقتحموا الحرم واجلوا عنه سكانه من جرهم وهم من اليمنيين ، وسار عمران بن عمرو نحو عمان واستوطنها ، وهم ازد عمان ، وسار جفنة بن عمرو الى الشام ، وهو ابو الملوك الغساسنة ، ومنهم قبيلة لخم بن عدي الذين منهم نصر بن ربيعة ابو الملوك المناذرة بالحيرة ، ومنهم

طيء الذين نزلوا الشمال الشرقي من المدينة المنورة ...

وكذلك تفرقت القبائل اليمانية واحتلت اخصب بقاع جزيرة العرب.

شعب عدنان

اما شعب عدنان فموطنه الاصلي مكة وما جاورها من ارض الحجاز وتهامة ، ويقسم النسابون عدنان الى فرعين كبيرين : ربيعة ومضر .

اما ربيعة فاشهر قبائلها اسد ووائل وهي تقسم الى بكر وتغلب .

واما مضر فاشهر قبائلها : قيس عيلان ، واليها تنسب هوازن وسليم وغطفان ، وغطفان تنقسم الى القبيلتين الشهيرتين : عبس وذبيان ، وكان العداء بينهما شديداً في الجاهلية .

ومن مضر تميم ، وكانت تسكن بادية البصرة ، ومنها هذيل التي كانت تسكن جبالاً قريبة من مكة ، ومنها كنانة وكانت تسكن جنوبي الحجاز ، ومنها قريش وهي التي كانت تسود هذا القسم [1] .

وقد كان بين ربيعة ومضر عداء شديد ظل قروناً طويلة ، وكانت ربيعة تتحالف غالباً مع عرب اليمن لمحاربة المضريين .

اما نسب هذه القبائل فلا يزال يعتوره الشك ، والمستشرقون ينكرون اكثرها ، ولكن العرب اعتنقوها وبنو عليها عصبيتهم ، وانقسموا في كل مملكة نزلوها الى فرق وطوائف وفاقاً لهذه الانساب.

---

١) انقسمت قريش الى قبائل شتى اشهرها جمح وسهم ابني قصيص بن كعب ، وعدي بن كعب ، وتيم بن مرة ، وزهرة بن كلاب ، وعبد الدار بن قصي ، واسد بن عبد العزي بن قصي ، وعبد مناف بن قصي ، وكان له من الولد عبد شمس ، ونوفل ، وعبد المطلب وهاشم ، والى هاشم ينتسب محمد بن عبد الله .

وفي النقوش التي ظهرت اخيراً في الجزيرة العربية ما يدل على ان هناك مملكة نشأت في اليمن قبل مملكة سبأ ، وهي مملكة « معين » عاشت في الالف الثانية قبل المسيح ، ونعمت بجانب عظيم من القوة والثروة ، واشتهر اهلها بالتجارة خصوصاً البخور والمر ، وكانت سوقها نافقة في مصر لقربها منها ، وامتد نفوذها الى غزه من اعمال فلسطين الحاضرة ، وانتشرت محطاتها التجارية والبحرية في طول الطريق التجاري في ذلك العهد .

وانتقل سلطان معين الى سبأ التي بدأت بالظهور في الالف الاولى قبل المسيح ، وقد اشتهرت مثل مملكة معين بالتجارة والغنى والثروة ، ولم توفق سفن البطالسة في البحر الاحمر لمزاحمتها ، فقد ظل سكان مملكة سبأ يمدون الهياكل المصرية والحبشة بالبخور ... وغير البخور دون سواهم .

ويتحدث لنا نولدكه المستشرق الالماني عن الحضارة العربية الرائعة التي قامت في اليمن منذ الالف الثانية قبل المسيح بشيء كثير من الاعجاب والتقدير ، واذا كان يصعب علينا وصف هذه الحضارة بالتدقيق ، فان بقايا المباني الفخمة والنقوش الكثيرة التي لا تزال الى يومنا هذا ، تشهد بانها حضارة رائعة عجيبة .

واشتهر في اليمن مملكتان — بعد معين — سبأ وحمير ، وكان سبب حضارة هاتين المملكتين ان اليمن كانت بلاداً زراعية تصلح للاعمار والانتاج ، وكان اليونان والرومان على معرفة بهذه الحضارة وقد وصفوها في كتبهم ، وشهدوا لها بالثراء والتمدن ، ولكن معلوماتهم كما يظهر

كانت قليلة محدودة ، واما التوراة فقد تبسطت اكثر من المؤرخين اليونانيين والرومانيين فوصفت زيارة ملكة سبأ لسليمان النبي ، وما ظهرت به هذه الملكة من فاخر الثياب وثمين الحلي ، وما اهدته الى سليمان من الهدايا الثمينة مما يدل على حضارة بلغت درجة عظيمة في الترف والرخاء .

ويظهر ان اهل سبأ كانوا اصحاب ثروة كبيرة ، وانهم جمعوا ثروتهم هذه من احتكارهم للتجارة في ذلك العهد السحيق ، خصوصاً المواد العطرية كالبخور الذي كان كثير الاستعمال في الهياكل والمعابد في مصر والحبشة وغيرهما وقد ذكرت التوراة هذه العطور خصوصاً البخور والذهب والحجارة الثمينة كأنها من الاشياء التي اشتهر بها اهل سبأ ، وكانت قوافل سبأ تحمل هذه الحاصلات الى الشمال .

وفي الآثار التي وجدت في الحجاز ما يدل على انه كان لسبأ محطات تجارية خارج بلادهم ، ومن المؤكد انهم اثروا كثيراً بحضارتهم على البلاد العربية القريبة منهم ، والبلاد التي كانت تمر بها قوافلهم .

اما ما يقال من ان سبب انهيار الحضارة اليمنية يرجع الى انهيار سد مأرب ، فرأي فيه كثير من الغلو ، لانه يصعب علينا الايمان بان انهيار السد كان كافياً لانحلال هذه المملكة المتحضرة .

ثم ما كان يمنع اهل اليمن من اعادة بنائه كما فعلوا قبلا ، ولكن الرأي الصواب ان اهل اليمن اصيبوا بالانحطاط قبل انهيار السد بزمن بعيد ، واخذ عدد كبير من اهلها بالهجرة الى الجهات الاخرى من جزيرة العرب ، وكان من اثر ذلك ان خفت العناية بالسد ، واهمله الموكلون بشأنه ، فتصدعت جوانبه ، ولم يعد يحتمل هجمات السيول والمياه الكثيرة المحجوزة خلفه ، فهوى وتدفقت المياه على ما حوله من القرى والمزارع

فاتلفتها ، وكان ذلك سنة ١٢٠ ق.م كما يقول بعض المؤرخين .

وقد ساعد سكان اليمن من سبأ وحمير ذلك الخصب الذي امتاز به هذا الجزء الذي كانوا يحتاونه من بلاد العرب على الاستقرار ، كما انه كان لتجارتهم الواسعة النطاق مع مصر وسوريا وبابل والحبشة اثر كبير في تدفق الثروة عليهم ، واما ما بلغته مدن سبأ من الحظر والحضارة فتؤيده هذه الاخبار المستفيضة عن اواني الذهب والفضة ، واعمدة الرخام والهياكل العديدة ، مما لم يشهد العالم القديم مثله ، كما ان القناطر التي اقاموها على الاعمدة لتوصيل مياه الشرب الى المدن تدل على براعة ومتانة في البناء ، ومهارة في فن العمار ومعرفة تامة بنظام الري [١] .

والواقع ان العرب في هذا العهد وقبله ، لم يكونوا امة منعزلة ، فقد كانوا تجاراً بارعين ينقلون تجارة الشرق الى الغرب وتجارة الغرب الى الشرق ، ولما انهار سلطان اليمن وتفرق اهلها قبض على ناصية التجارة عرب الحجاز ، وكان ذلك في القرن السادس للميلاد ، فكان الحجازيون يشترون السلع من اليمنيين والحبشيين ، ثم يبيعونها على حسابهم في اسواق الشام ومصر ، دون فارس لان اسواق فارس كانت بيد عرب الحيرة ، وجعل عرب الحجاز مكة قاعدة لتجارتهم ووضعوا الطريق تحت حمايتهم ، وعلى تجارة مكة كان يعتمد البيزنطيون في كثير من شؤونهم حتى فيما يترفهون به من الوان الحياة المادية ...

وكان التجار يخرجون بتجارتهم قوافل عظيمة ، قد تبلغ القافلة الواحدة خمسمائة والف بعير ...

وكان عرب الحيرة يتعهدون بحماية قوافل التجارة الفارسية عند مرورها في بلاد العرب مقابل مبلغ من المال يأخذونه من الفرس ، ويرون

---

(١) انظر كتابنا الحضارة العربية الاموية .

ان الفرس استكثروا مرة هذا الجمل فابوا دفعه ، فهاجم العرب قافلة فارسية وهزموا حماتها ، وكان من اثر ذلك يوم ذي قار ، وبه تغنى الشعراء وعدوه نصراً للعرب على الفرس ...

وكانت القوافل التي تذهب من بلاد العرب الى الشام تنزل في اسواق معينة خصصتها لهم الحكومة الرومانية لتحصيل الضرائب المفروضة كما يظهر ، وكانت هذه القوافل اول ما تنزل في البلاد الرومانية تنزل في « ايلة » — العقبة — ومنها تذهب الى غزة ، وهناك تتصل بتجار البحر الابيض ومن غزة يذهب بعض التجار الى بُصرى .

الحيرة وغسان

ولقد قامت على حدود بادية الشام مملكتان عربيتان وهما امارتا الحيرة وغسان ، وكانت امارة الحيرة مرتبطة مع الفرس بمعاهدات كما كان آل غسان مع الروم ، وقد اتخذ الفرس امارة الحيرة عوناً لهم على حروب الروم ، وحائلاً يحول بين العراق وغارات الاعراب على حدود الدولة الفارسية ، كما اتخذ الروم امراء غسان عوناً لهم على الفرس ، وذريعة للسيطرة على القبائل العربية القريبة من الحدود الامبراطورية ، وكان للغسانيين مواقف معدودة في الجاهلية انتصروا فيها للروم على الفرس وصدوا عنهم ملوك الحيرة ، وفعل امراء الحيرة مثلهم ، وتأثر الاثنان بحضارة الدولة التي كان يحالفها ويؤيد سياستها ...

وتقع امارة الحيرة على بعد ثلاثة اميال من الكوفة على بحيرة النجف ، وكانت تقوم في ارض ضيقة تمر بها فروع من نهر الفرات .

ويرجع تاريخ امارة الحيرة الى القرن الثالث الميلادي واستمرت الى ظهور الاسلام ، وكان لاهلها اثر كبير في الحضارة العربية ، فقد كانوا

يجوبون ارجاء الجزيرة العربية للتجارة ، وكانوا يشتغلون بتعليم القراءة والكتابة ، وكانت علاقاتهم مع فارس اقرب الى نظام المحالفات منها الى شيء آخر ، كما كانوا ينعمون باستقلالهم الداخلي ، ولكن ملك الفرس كان ينعم بصلاحية اختيار الملك من قبيلة لخم ، فاذا مات الملك عين من يختاره من اهل بيته .

وكان عرب الحيرة في حالة من الرفاه عظيمة ، لخصب ارضهم ، وغنى اقليمهم ، وبلغت الحيرة اوجها ايام المنذر الثالث وكان معاصراً لجوستينان الذي هزمه الفرس بتأييد العرب لهم ، وجاء بعده النعمان بن المنذر الخامس زوج هند ، والملقب بابي قابوس صاحب النابغة الذبياني الشاعر ، وقد غضب عليه كسرى ففر هارباً ، ثم لجأ اليه فحبسه حتى مات ويقال ان قتله وكان ذلك حوالي سنة ٦٠٢ .

والواقع ان الضعف حل في المناذرة امراء الحيرة قبل هذا التاريخ ، فقد كان للحروب التي توالت بين الساسانيين وقياصرة القسطنطينية اكبر الاثر في اضعافهم ، لاضطرارهم الى موالاة الفرس في الحروب المذكورة ، وكانت اول الحوادث التي نزلت بالمناذرة هزيمة المنذر بن ماء السماء وقتله على يد الحارث بن ابي شمر الغساني في موقعة مرج حليمة سنة ٥٥٤م ، ثم هزيمة ابنه وقتله على يد المنذر بن الحارث الغساني سنة ٥٧٠ ، ثم تلى ذلك تنازع اولاد المنذر على العرش ، ولما استتب الامر للنعمان بن المنذر غضب عليه كسرى وقتله كما ذكرنا ، ثم اقام مكانه إياس بن قبيصة خلفاً للنعمان على بلاد الحيرة ، ولم يكن من اهل بيت الملك ، واشرك معه رجلاً فارسياً في الحكم ... وبذلك ضاع استقلال المناذرة ، وظل الحال على هذا المنوال حتى زحف العرب المسلمون على العراق .

وكان للغساسنة في الشام ما كان للمناذرة في العراق ، ويؤكدون

ان اصلهم من اليمن وقد امتد حكمهم على مقاطعتي حوران والبلقاء ، ويظهر ان عاصمتهم لم تكن مستقرة في مكان واحد ففي الشعر ما يدل على ان الجولان والجابية وحليمة بالقرب من دمشق كانت عواصمهم . . .

وتاريخ الغساسنة اقل وضوحاً من تاريخ المناذرة ، واهم امراء الغساسنة الحارث بن جبلة وقد بسط الروم سلطانه على كل القبائل العربية في الشام .

وقد قامت بين الحارث والمنذر امير الحيرة حرب سببها النزاع على الاراضي الممتدة على جانبي الطريق الحربية من دمشق الى ما بعد تدمر ، وطال القتال بينهما حتى احرز الحارث نصراً حاسماً سنة ٥٥٤ وهو يوم حليمة عند العرب .

ولما غزا الفرس الروم واخذوا منهم دمشق (٦١٣ — ٦١٤ م) انحط شأن الغساسنة وضعف امرهم ، وكان آخر ملوكهم او امرائهم جبلة بن الايهم الذي يقال انه اسلم ، ثم ارتد لما اراد عمر بن الخطاب معاقبته ، لانه لطم عربياً وطيء فضل ازاره ، وهرب الى قيصر ومات في القسطنطينية سنة ٢٠ هجرية .

وكان في بلاد العرب امراء غير من ذكرنا ، كامراء كندة ، ومنهم امرؤ والقيس الشاعر ، الا ان شأن هؤلاء لم يكن من الخطر بحيث يستدعي التبسط في تاريخهم ، واما القبائل العربية الباقية فالذي كان قريباً من الحيرة كان تابعاً لها ، والذي كان قريباً من الشام كان تابعاً للغساسنة ، وان كان ذلك لا يستلزم الخضوع بكل ما في الكلمة من معنى ، لان القبائل العربية في الواقع لم تكن تطيق الاستعباد ، فكانت والحالة هذه — وفاقاً لتقاليدها — مرتبطة برئيس القبيلة دون غيره ، تقيم بمقامه ، وترحل برحيله ، وله في كل غزوة من الغزوات حصة السيد الرئيس .

وقد يورث الاب الرئاسة لابنه — ان كان قوياً اهلاً لها — وقد يعظم قدر الرئيس ويقوى امره ، بحيث يغزو من حوله من القبائل الضعيفة ، فارضاً الجزية عليها ...

العرب قبل الدعوة

ولم يكن العرب — واريد البدو منهم — في حالة من السذاجة والجهل بالقدر الذي ذهب اليهم بعضهم ، فان مـــا لدينا من آثارهم ومناقبهم واخبارهم ومنافساتهم يؤكد بما لا مجال الى الشك فيه بانهم كانوا في حالة فكرية وادبية حسنة ، وان كانوا اقل حضارة ، واخشن عيشا ، وادنى علماً من ابناء عمهم الذين انشأوا الممالك في اليمن والعراق ومشارف الشام ..

ولولا ذلك ما تحداهم القرآن بآية من آياته ، ولا راح يصفهم باللدد والبيان وشدة الخصومة ، كما ان ما نقرأه من اشعارهم وهم بـدو خشنو الطباع كما قدمنا ، يدل على انهم كانوا يتمتعون بكثير من الاخـلاق الفاضلة ، والمناقب الحسنة ، والشمائل الكريمة ، وكفى بحبهم للحرية ، ودفاعهم عن الاستقلال ، والزود عن الاعراض حجة على ما نقدمه ، وعلى انهم في اخلاقهم هذه كانوا في مستوى ارفع وانبل من مستوى كثير من شعوب اليوم ...

ولقد كانت غاية الرسالة المحمدية إخراج العرب من الوثنية والاشراك بالله ، ولم تكن هذه الرسالة موجهة الى العرب البدو وحدهم ، وانما كانت للناس جميعاً ، يستوي في ذلك المتحضر وغير المتحضر ، والعالم والجاهل ، فمن الحماقة والحالة هذه اتهام العرب البدو بما هم براء منه ، واذا كانوا في جاهلية وهو ما نقرره ، فقد كانت هذه الجاهلية عليقة بالوثنيـــة ، وثيقة الصلة بالعقيدة الدينية ...

واما الآثار العربية التي انتظمت للعرب قبل الاسلام فكثيرة لا تدخل تحت حصر ، وليس هنا مجال بحثها واستقصائها فان هذا يعود لكتب اللغة ، ولكن رواة اللغة بعد ظهور الاسلام والذين عاشروا العرب البدو كانوا يعترفون بان ما ضاع من شعر العرب وحكمتها لا يدخل تحت حصر ...

واذاً فنحن نؤكد ان العرب البدو قبل الاسلام كانوا ينعمون بكثير من المعارف التي اكتسبوها من المخالطة والتجارة ، والانسياح في الارض من مكان الى آخر ، كما انهم كانوا ينعمون بحياة ادبية ممتازة ، ولولا ذلك ما تحداهم القرآن بآياته ، لانه لا يصح ان يتحداهم بشيء لا يفهمونه ولا يتذوقونه ، ولا يدركون اسراره ، ولا تقوم به حجة عليهم ، كما ان مما يدل على ان العرب كانوا في هذه الفترة من الزمن — اي عند ظهور الاسلام — في حالة معنوية ممتازة ، ما انشأوه بعد ذلك من ممالك وامبراطوريات جديدة على انقاض امم متحضرة متمدينة ، بحيث سارت الادارة الحكومية على سنن من العدل ، والوان من النظام ، واشكال من الاستقراء لم يكن لسكان البلاد به عهد قبل يومهم هذا ...

- ٢ -

الانساب العربية

مناقشة البرنس ليون كايتاني

المؤرخ الايطالي الشهير البرنس كايتاني مركز رفيع بين علماء المشرقيات ، وكتابه في تاريخ الاسلام واولياته يعد من اوثق المصادر التاريخية في اللغات الاوربية لتاريخ العرب والاسلام ، ولكننا مجبرون على مخالفته هو وغيره من المستشرقين في كثير من الآراء التي يروجون لها ، والمذاهب التي يعلنون عنها ، ونعتقد بحق في بعض الاحايين انهم لم يوفقوا الى معرفة روح العصر الذي يؤرخون له ، وتفهم نفسية الامة التي يكتبون عنها ، ومن الامور التي نختلف معهم فيها ، مسألة الانساب العربية التي ينكر المستشرقون معظمها ، والتي يقول عنها البرنس كايتاني : انه لما كانت وتيرة الحياة في شبه الجزيرة العربية لم تتبدل كثيراً ، عما كانت عليه في سالفات الايام والاعوام ، فلنا ان نحكم بخطل الرأي القائل بان للعربي قدرة عجيبة على حفظ انسابه ابأ عن جد الى اقدم الازمان ، لان مثل هذا الرأي لا يتفق وما نخرج به من دراسة عرب اليوم »

وفي هذه الاسطر القليلة يعترف البرنس كايتاني بان عرب اليوم ينعمون بحياة تختلف قليلاً عن حياة عرب الامس ، ومن المفروض ان يشمل هذا الاختلاف الضعيف القليل جميع الوان الحياة العربية ومنها الانساب ، فاذا كان الضعف قد تخلل انساب عرب اليوم قليلاً ، فليس ما يمنع ان يكون عرب الامس احفظ لانسابهم من عرب اليوم ..

وشيء آخر ايضاً : ما دام المستشرقون يؤمنون بالقدرة العجيبة التي

كانت لعرب الامس في حفظ اشعارهم واخبارهم وهو ما ثبت فعلاً، إلا اذا حاولنا انكار كل ما وصل الينا من ادب العرب وشعر العرب ، فلماذا ينكرون على عرب الامس ان يُعنوا بانسابهم كما عنوا باشعار شعرائهم ، واخبار ايامهم... وهي اعلق بهم ،والصق بشرفهم واصولهم؟؟

سبرنجر ورأيه

ويؤيد المستشرق سبرنجر رأي كايتاني فيقول :

« كان نظام تعدد الازواج والتوطمية سائداً عرب الجاهلية بجانب نظام الزواج الخارجي ، وبذلك لم تكن نسبة الابناء للاباء ، انما كانت للقبيلة في الغالب واحياناً للام ، اما سلاسل الانساب التي تنسب للجاهليين فلم يكن عرب الجاهلية يعرفونها وهي من صنع الرواة والنسابين في القرن الثاني للهجرة .

« ولقد ظهرت فكرة الانساب لما أسس عمر خليفة المسلمين ديوان الخراج وراعى في تقييد الاسماء وتدوينها الاعتبارين الديني والعقلي ، وكان هذا مقدمة بعد قرن من الزمن لوضع شجرات الانساب . »

وفي هذا الرأي الكثير من الغلو والخطل ، لان العرب في الجاهلية كانوا يحاربون بعضهم بعضاً دفاعاً عن انسابهم ، وعصبية لهذه الانساب في كثير من الاحايين كما هو ثابت في مختلف المصادر التي وصلتنا عن العرب ، واذا كان بعض النسابين في القرن الثاني للهجرة قد تحايلوا في بعض الانساب ، ونسبوا فلاناً الى هذه القبيلة لغرض في النفس ، كما نحلوا شعراً موضوعاً لشاعر من الشعراء الاقدمين مثلاً ، فليس يصح ان نتخذ من هذه الحوادث الفردية التي لم تخل منها امة من الامم القديمة ، ولا شاعر من الشعراء الاقدمين — كهومير مثلاً الذي نحلوه كثيراً من

الشعر الذي لم يقله — حجة على انكار كل الانساب، ورفض كل الشعر !!

اما القول بان فكرة الانساب قد ظهرت للوجود في عهد عمر بن الخطاب لما اسس او وضع ديوان الخراج ، فجهل فظيع ، لا يجب ان يصدر عن مستشرق كبير ، لان ديوان الخراج لم يوضع للمحافظة على الانساب وتأييدها ، وانما وضع لتوزيع العطاء على جمهرة المسلمين ، ولم يراع عمر بن الخطاب في وضعه نسب فلان وقرابة فلان ، وانما نظر الى ما افضاه كل شخص من المسلمين سواء أكان حراً ام عبداً لمحمد والاسلام من خدمة وتأييد وتعضيد ...

والواقع اني لست انكر ضعف الانساب عن بعض العرب خصوصاً البدوية منـــها ، ولكني اؤمن ايماناً مطلقاً بقوتها ، وانها كانت من الامور المتصلة بحياتهم اتصالاً وثيقاً ، خصوصاً عنـد القبائل المتحضرة والمستقرة ...

البداوة ثقافة

والحياة البدوية نوع من الثقافة التقليدية ، وهي الى ذلك شيء يتصل بروح كل افراد القبيلة ، فهي حياتهم ، وهي غايتهم في الحياة، حتى تصل اليهم نعمة الاستقرار ، فيتكلفون مع الزمن حياة جديدة ، ولكن اثر البداوة يظل في هذه الحياة الجديدة قوياً بارزاً الى مئات الاعوام .

ومن المستحيل ان تتحرر جماعة بدوية من حياتها البدوية ، وان تتناسى ما توارثته مع الايام في سنوات معدودات ، ولما كان العرب قد احتفظوا في بداوتهم باختلافاتهم ، ورغبتهم الملحة في الاحتفاظ بالحياة الحرة المستقلة في نظام القبيلة ، مع ما يتبع ذلك من الاحتفاظ بانسابهم والتفاخر بهذه الانساب ، والمحاربة في سبيل هذه الانساب ، فقد وجـد

الاسلام اول امره عناء عظيماً في اخضاعهم وتعويدهم على الحياة الحرة الجديدة ، التي يتناسى فيها العربي نفسه ونسبه ليعيش حياة جديدة في سبيل المجموع لا في سبيل الفردية التي عاش عليها العرب في بداوتهم عشرات الاعوام ...

ولقد كانت روح القبيلة ، وحب العصبية ، والتفاخر بالانساب من القوة عند العرب بحيث انهم حملوا هذه العادات معهم الى دمشق وقرطبة وافريقيا ومصر ، والى كل بلد نزلوه بعد الفتوح الاولى ، واجروا هذه العادات بينهم وفي هذه المدن المتحضرة كما لو كانوا في الجاهلية وقبل الاسلام ، فلم يتناسوا شيئاً منها ، ولا تخففوا من اثقالها ، وكانت هذه الاختلافات التي حملوها سبباً في تمزقهم وانهيار سلطانهم في دمشق وقرطبة وافريقيا ، مما يدل بما لا سبيل الى الشك فيه ، على قوتها في نفوسهم ، وتأثيرها في روحهم ، حتى انها مزقت دولهم ، وادالت حضارتهم ، واثخنت فيهم ...

ومن يدرس تاريخ العرب بعد الاسلام يرى كيف ان الشعر العربي في عهد الراشدين واميه كان ميداناً للتفاخر بهذه الانساب والعصبيات ، ولو ان الانساب كما يقول المستشرقون مما اختلقه النسابون في القرن الثاني ، لكان من المفروض ان لا يعرض لها العرب في القرن الاول ، وان لا تكون سبباً في انهيار الدولة الاموية في دمشق ... وقد وقع انهيارها كما هو معلوم سنة ١٣٢ هجرية اي في اوائل القرن الثاني للهجرة.

شيء عن العادات العربية

والبداوة نظام توزع فيه الثروة على اساس مستمد من الاسلاب والمغانم من جهة ، وعلى تربية الماشية والصيد والقنص وقليل من الزراعة

من جهة اخرى ، ولذلك كانت الحياة الاقتصادية غير مستقرة على اساس ثابت قوي عند اهل البادية ، لانها تقوم كما قدمنا على الغزو ومهاجمة القوافل والاغارة على القبائل الاخرى، وعلى الاقاليم والمساكر والمزارع المتحضرة ، التي تقوم بجانب منازل البدو ، ومن التنقل بين المراعي والمزارع بجانب العيون والآبار ومسالك السيول في الوديان ، وهذه حياة قلّ ان تسمح بقيام حضارة ونظام مستقر ، كما أنها تعرض اصحابها لكثير من الاخطار كالقحط والمجاعة ، وتجعل وسائل العيش عندهم ضيقة صعبة ، يضطرون معها الى التنقل من مكان الى آخر ، مما كان يضطر العرب البدو بصورة خاصة ، الى التخفيف عن انفسهم بوأد بناتهم ...

وقد اشار « دارون » في كتابه اصل الانسان الى هذه الظاهرة ، وكيف انها كانت من المظاهر العامة عند كل القبائل التي كانت تحيا حياة العرب البدو وتنعم بفقرهم وحاجتهم الملحة الى المأكل والمشرب ..

وكان وأد البنات من العادات المعروفة عند بعض العرب في الجاهلية ، وقد حرّم الله سبحانه وتعالى هذه العادة في القرآن ، وكان من نتيجة هذه الظاهرة ان كان يأتي وقت على القبيلة لا يجد رجالها لانفسهم نساءً بنسبة عددهم ، فيضطر جماعة منهم الى المشاركة في امرأة واحدة ، وهذا النظام من الزواج يعرف بنظام تعدد الازواج ، وهو شائع عام عند كل القبائل البدوية في العالم ، ولا تزال هناك قبائل في العالم تعمل به حتى اليوم . وفي مثل هذا النظام يصعب معرفة الاب على وجه التحقيق ، فينسب عندئذ المولود الى امه او قبيلته .

ومن المؤكد ان هذا النظام كان موجوداً عند بعض قبائل العرب في الجاهلية [1] ، ولكنه لم يكن قوياً عنيفاً ، ويذكر « ستوابون »

(1) Element of sociology : Blachmar.

الجغرافي الروماني المشهور ، ان العرب كانوا يعملون بهذا النظام ، وان ذكور اسرة واحدة كانوا يتزوجون امرأة واحدة[1] ، ولما كان سترابون قد عاش حوالى تاريخ الميلاد ، فان المفروض ان هذه العادة كانت شائعة عند العرب في ذلك العهد السحيق ، ولكننا نعتقد كما قدمنا ، انها خفت مع الايام ، وانه لما اشرف الاسلام كانت هـذه العادة اقل خطراً وشأناً مما كانت عليه قبلاً .

والمستشرقون اليوم يؤكدون ان العرب قبل الاسلام ، كانوا على نظام الطوتمية والزواج الخارجي .

والطوتمية ظاهرة بدوية مظهرها احترام القبائل البدوية للكائنات التي تراها حولها ، وايمانها بوجود نسب يربطها بها ، مع اعتقاد كل شق من ذكور القبيلة واناثها بطوتم خاص ، كما يذهبون الى ان لكل فرد ايضاً طوتمه الخاص ...

اما طوتم القبيلة فيشترك في تقديسه كل افراد القبيلة ، معتقدين انهم جميعاً من سلالته وانه جدهم الاعلى ، وانهم واياه من دم واحـد ، تربطهم معه عهود متبادلة ، والطوتم عادة يكون من النبات او الحيوان او غيرهما ...

ويكون للطوتم اعتباران : اعتبار ديني واعتبار اجتماعي ، فالديني هو مظهر لما بين الفرد وطوتمه من العلاقات المتبادلة ، واما الاجتماعي فهو مظهر للحقوق المتبادلة بين افراد القبيلة التي ترجع لطوتم واحد .

ومن الاسباب التي خلقت فكرة الطوتمية جهل الانسان بالحقائق البيولوجية ، وضعفه عن تصور حقيقة الصلة القائمة بين الرجـل والمرأة وانتاج الخلف ، ولا تزال هذه الظاهرة موجودة عند بعض القبائـل

---

(١) سترابون في الكتاب ١١ والكتاب ١٥ من مؤلفه .

الحاضرة ، وجهل الانسان جعله يتصور وجود صلة ضعيفة بين مجيء الاولاد الى هذا العالم ومظاهر الوجود ، والايمان بوجود ارواح خفية هي السبب في مجيء الاولاد ، وان وجود غشاء البكارة يمنع هذه الارواح من غشيان المرأة ...

والطوطمية كمظهر لهذا الجهل تقوم على ثلاثة اسس :

اولها : اتفاق القبيلة على كائن تعتقد انه الجد الاعلى لها .

وثانيها : الانتساب الى هذا الكائن ، وثالثها : عبادة هذا الكائن وتقديسه .

ومن شروط الطوطمية : الزواج الخارجي اي اتخاذ النساء من افراد طوطم آخر اعتقاداً منهم بانه لا يمكن قيام صلة جنسية بين افراد طوطم واحد ، لتخيل وجود هذه القرابة بين افراد الطوطم الواحد ، كما ان من شروط قيام النظام الطوطمي الامومة اعني الانتساب للام ، وبذلك تتقطع فكرة النسب والانساب في المجتمع السائر على النظام الطوطمي .

الزواج عند العرب

وكان الزواج عند العرب على الوان ، وابسطها الزواج المشترك ، وهو ان يشترك الذكور في الزواج بالاناث ، وهذا الضرب كان شائعاً في عصور التاريخ الاولى وهو مجرد عن القيود وتطور عنه مع الزمن زواج المساكنة وهو ان يساكن الرجل المرأة مدة حملها ، وتمخض عن هذا الضرب زواج المتعة . وقد ظل اللون الاخير معروفاً عند العرب حتى القرن الرابع عشر للميلاد [1] حتى ان قبيلة « زبيد » النازلة على الشاطيء الاسيوي من البحر الاحمر كانت تجري على ضرب من الزواج الموقت الاختياري حيث يساكن الرجل المرأة باختياره مدة حملها ، وكان

(١) هوار : تاريخ العرب ص ١٦ .

ذلك على عهد « ابن بطوطة » الرحالة المغربي المشهور .

وكذلك نرى ان منشأ الجماعة هو « الام » ، لان لها من عاطفة الامومة ما يحملها على الدفاع عن اولادها والزود عنهم ، وان نظام تعدد الازواج كان مقدمة لانتظام الحياة الزوجية التي نعرفها ، ونظام تعدد الازواج كما قدمنا ، نظام يكون فيه للمرأة في وقت واحد عدة ازواج ، ويكون هؤلاء الازواج عادة من غير قبيلتهـــا اذا كان المجتمع سائراً على نظام الطوطمية ، وبعض القبائل العربية كانت تسير على هذا النظام الذي فرضته عليهم حياتهم المضطربة التي لا تعرف الاستقرار ، والآثار التي تؤكد ما قدمنا قديمة في اكثرها وتعود الى القرن الاول للميلاد ، ومن ذلك الاثر الذي عثر عليه في مدائن صالح ، وهو مكتوب بالخط النبطي وقد جاء فيه ما يأتي :

«هذا القبر بنته كمكم بنت وائلة بنت حرم وكلبية ابنتها لها ولذريتها[1]»

وهناك تمثال للزباء (زينب العربيـة) عليه نقوش بالخـط التدمري تنتسب فيه « الزباء » لامها ، كما ان ابناءها وهب اللات وخيران وتيم اللات وهم من زوجها اذينة ، ينتسبون اليها وحدها دون ابيهم[2] ..

وهذا كله يدل على ان المجتمع التدمري في هذا العهد السحيق كان سائراً على نظام الامومة وتعدد الازواج ...

والامومة كما قدمنا نظام تكون فيه المرأة رأس العائلة ، هذا مـع تعدد ازواجها ... والظاهر ان هذه الظاهرة لم تكن مطلقة عند عرب الجاهلية ، فقد كان هناك قبائل تتكلف هذا النظام ، وكانت هناك قبائل لا تعمل به ، وقد لاحظ العلماء ان تزوج امرأة واحدة برجلين لا يزال

---

(١) الآثار السامية الشمالية ص ٢٢٠

(٢) « « « ص ٢٩١

شائعاً في جزائر الباسفيك ، والظاهر ان الخال وهو شخص من اصل المرأة التي هي رأس العائلة لم يكن له حق الزواج ببنت اخته مثلاً ، وكان محظوراً عليه مساكنتها ، واما العم فكان على غير ذلك ، ولم يكن هناك ما يمنع الاعمام من الزواج ببنات اشقائهم لانه لم يكن متصلاً بالمرأة التي هي رأس العائلة اتصالاً وثيقاً في النسب بعكس الخال ...

ونلاحظ من جهة اخرى ان الانتساب للام كان شيئاً عادياً عند بعض الجاهليين ، وكانت بعض القبائل كثيراً ما تحمل اسم المرأة ، لانها انحدرت من نسلها ، كبني خندف ، وبني خولة الذين عرفوا بالخزرج فيما بعد وغيرهما ...

هذا الى ان تعبير العرب عن القرابة بلفظ البطن يدل على انهم كانوا على نظام الامومة ،لان كل الجماعات التي سارت على هذا النظام استعملت هذه اللفظة ...

والخلاصة التي نريد الوصول اليها من هذا البحث هو ان الامومة كانت من المظاهر الاجتماعية في حياة بعض القبائل العربية ، وانها كانت قوية في القرون الاولى للميلاد ، ثم اخذت بالضعف مع الايام ، فلما ظهر الاسلام كان قد اعتورها الكثير من الضعف والانهيار ...

واما الذين اخذوا باسباب التحضر من العرب ، كعرب الجنوب ، وغير عرب الجنوب وعرب الشمال وسكان المدن في الحجاز مثلاً ، فقد انتظمت لهم حياة اجتماعية مستقرة ، جعل للزواج عندهم نظاماً مقرراً على غرار زواج اليوم ، غير ان قرب الحياة الزوجية الفردية كان يدفع المرأة لمساكنة رجل غير زوجها ، اذا غاب هذا عنها ، فاذا ولدت منه ولداً بقيت معه ، وإلا عادت لزوجها الاول عند عودته .

وكانت حقوق المرأة في اليمن مساوية لحقوق الرجل ، تتعاطى اعماله

وتقوم بوظيفة الكهانة مثله ، ولم يكن هذا النظام على اساس تعدد الزوجات ، لان العرف لم يكن يسمح للرجل بان يتزوج امرأة غير زوجته ، ولكنه كان للمرأة اذا لم تلد لزوجها ولداً ان تقدم له جارية لتلد له ، ثم تطور هذا الامر مع الزمن فصار من حق الزوج نفسه ، وكان هذا مقدمة لتعدد الزوجات .

اما في الشمال فقد كان هناك مجتمعان حضري وبدوي ، فالحضري كان يسير على تعدد الازواج والزوجات ، والبدوي على تعدد الزوجات ، ولكن في شيء من الرفق وعدم الاغراق .

اما عرب الحجاز ، فلوقوعهم على طرق التجارة ، ولاخذهم باسباب التجارة والحضارة ، اخذوا منذ القرن الرابع الميلادي بنظام تعدد الزوجات فقط ، وكان نظام الامومة قد ضعف عندهم وانهار ، فلما كان الاسلام اقرّ تعدد الزوجات على قدر وتحت شروط شديدة ...

نظام الطوطمية عند العرب

وكان نظام الطوطمية عند العرب يقوم على الاسس الآتية كما قدمنا :

١ - اتفاق القبيلة على كائن اعلى عادة يكون نباتاً او حيواناً واحياناً جماداً ، تعتقد انه الجد الاعلى لها ، وانها منحدرة من صلبه .

٢ — الانتساب اليه والتسمي باسمه .

٣ — تقديسه ويشترك في ذلك جميع افراد القبيلة ، واما اذا كان الطوطم خاصاً باحد الشقين من ذكور او اناث ، فيقدسه الشق الذي ينسب اليه .

ولكن العرب وان لم تتفق يوماً من الايام على الاعتقاد بحيوان او نبات متحدرة منه ، الا انه كان شائعاً عندهما اطلاق اسماء الحيوانات

وغير الحيوانات على القبائل بصيغة الجمع ، كقبيلتي انمار وكلاب مثلاً ، مما يدل على وجود فكرة مبهمة عن انتساب بعض قبائل الجاهلية لاجداد من الحيوانات هي الطواتم .

اما التسمي باسماء حيوانية او نباتية فكان شائعاً عند العرب القدماء مثل بني اسد ، وبني بكر ، وبني ثعلب ، وبني جعدة ، وبني حدأ ، وبني نعامة ، وبني حمامة ، وبني حنش ، وبني عنز ، وبني غراب ، وبني فهد ، وبني كلب ، وبني نمر ، وبني يربوع وغيرهم كثير .

وكانت العرب الى ذلك تصب اوثانها ، وتنحت اصنامها على اشكال الحيوانات ، وكان تقديسها كثيراً ما ينصرف لصور من الحيوان والنبات واحياناً لصور من الجماد . . .

وليس من شك عندنا في ان الانساب العربية يجب ان لا ترجع كثيراً الى مائتي سنة او اكثر قبل الاسلام ، ولكنها في هذه المائتي سنة التي سبقت الاسلام كانت قوية شديدة ، ولعل سبب ذلك ان العرب لم يهتموا في ماضيات الايام بانسابهم مثل اهتمامهم بها بعد ذلك ، وهذا الحل يكون وسطاً بين رأي المستشرقين والرأي المعتدل الوسط الذي نحاول اقراره ، لان كثيراً من القبائل كانت لا تعرف عن انسابها الا ذكريات مبهمة ، تتعلق بجد تنتسب اليه القبيلة ، وهذا الجد عادة يأخذ صورة حيوان او نبات او جماد ، تعتقد القبيلة انها منحدرة منه ، وهذه قبيلة قريش تنسب « للقرش » وهو وحش من وحوش البحر الاحمر .

واذا عدنا الى العهد الذي نشأت فيه القبائل وتكونت البطون والافخاذ فاننا سنجد في التكاثر العددي السبب الاول ، مثال ذلك ان عرب الوسط ، وهم بدو ينزلون تهامة والحجاز ونجد وقليل منهم من تحضر في الحجاز حوالى مكة ويثرب في القرن الرابع للميلاد ، نجد انهم ينقسمون

الى فرعين كبيرين « معد » و « عك » والفرع الاخير نزل نواحي زبيد جنوبي تهامة ، وقد ذكرها اليونان في كتبهم تحت اسم Acchaitai وتفرع مع الزمن منهم القبائل والبطون والافخاذ . اما «معد» فهو فرع انقسم الى قسمين « نزار » و « قنص » والاخير انقسم الى خمسة بطون: قضاعه ومضر وربيعة وأياد وانمار ، وقد نزلت كلها في تهامة والحجاز ونجد ، فكانت مساكن قضاعة حوالي جدة على البحر الاحمر فما دونها شرقاً الى منتهى ذات عرق الحد الفاصل بين نجد وتهامة ، والى حيز الحرم من السهل والجبل ، وقبائل مضر اقامت في حيز الحرم الى السروات وما دونها من الغور وما والاها من البلاد ، اما ربيعة فقد اقامت في مهبط الجبل من غمر ذي كنده وبطن ذي عرق وما سافلها من بلاد نجد الى الغور من تهامة ، واقامت أياد وانمار معاً ما بين حد ارض مصر الى حد نجران وما والاها وساقبها ، وصار لقنص وغيره من اولاد معد ارض مكة واوديتها فلما تكاثروا مع الزمن جميعاً ضاقت بهم الارض فنزح بنو قضاعة ثم انمار ثم تهامة وكذا أياد التي نزلت في الجزيرة شمال العراق ، ولم يبق من بني معد في تهامة الا ربيعة ومضر فنزحت ربيعة وبقيت مضر بعد خروج ربيعة مقيمة وحدها في تهامة حتى كثر افرادها وتكونت الاحياء المختلفة والبطون والافخاذ ، فرحل منها من رحل ، والباقون تمخض الزمن عنهم بقبيلة قريش [1] .

ومن هذا يظهر لنا ان نشأة القبائل وفاقاً لرأي مؤرخي العرب ترجع لكثرة الافراد في القبيلة ، وازدياد عددهم زيادة يضيق دونها الوسط الذي تعيش فيه القبيلة ، فيضطر بعضها للارتحال تخفيفاً عن البعض الآخر ، فيخلق من ذلك بطون وقبائل جديدة ، وكثيراً ما تنشأ هذه

---

(١) ابن خلدون

القبائل من اجتماع عدة بطون من قبائل مختلفة .

وفي المصادر العربية ان قبائل تنوخ وغسان تكونت من شتيت البطون التي تناثرت في الصحراء من بقايا القبائل العربية المهاجرة [1] ، مما يدل على ان الانساب العربية قد اختلطت بعضها مع بعض قبل الاسلام بعشرات الاعوام ، ولكن هذه الانساب عادت فانتظمت وتكونت على اساس جديد في العصر الجاهلي ، لان اكثر هذه الحوادث التي بسطناها انما وقعت بعد الميلاد المسيحي بعشرات الاعوام ، ولم تتعده الى ظهور الاسلام ، فلا يصح والحالة هذه من المستشرقين اطلاق حكم عام على حالات فردية واستثنائية .

اما اختلاف النسابين في هذه الانساب ، وعدم اتفاقهم بعضهم مع بعض فمرده ان هذه الانساب لم تكن مكتوبة ولا مدونة ، ومن المفروض في الامور التي لم تدون ان يعتورها بعض التحوير والاختلاف ، ولكن هذا لا يجب ان ينفي وجود الامر المختلف عليه ، لان هذا نفي للتاريخ كله ، والتاريخ كما هو معلوم عبارة عن حوادث اختلف الرواة في تصويرها وعرضها ... وهذا الاختلاف نفسه دليل ثبوتها ووقوعها ولولا ذلك ما وقع اختلاف ...

ديوان العطاء

ويذهب بعض المؤرخين الى ان ديوان العطاء الذي وضعه عمر بن الخطاب كان الاساس الذي صار الاستناد عليه في وضع شجرة الانساب العربية ، وكان سبب وضع هذا الديوان تكاثر موارد الدولة من الغنائم والحرب وغيرهما ورغبة عمر بن الخطاب في ان يكون العطاء من بيت

---

(١) الفهرست لابن النديم .

المال وفاقاً لما قدمه كل شخص مسلم للعهد والاسلام من خدمات مشكورة مقررة ...

ولكن عمر بن الخطاب لم يهتم لانساب المسلمين ومراكزهم العائلية ، وانما اعتبر الشخص وخدمته للاسلام كما قدمنا ، لان نراه يقدم المهاجرين الاولين على غيرهم ، وكان بينهم العبيد ومن لم تكن له مكانة ولا نسب مرموق ، ولكنه الى ذلك قدم انسباء رسول الله وازواجه تعزيزاً للرسول وآل الرسول ، وقد عتبت عليه عائلته ، ونقم عليه قومه « بنو عدي » انه لم يقدمهم ، وفعل مثل ذلك ابنه عبدالله ، ولو كانت المسألة مسألة نسب ووضع انساب لفضل عمر بن الخطاب في الديوان الارستوقراطية المسلمة على غيرها ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا ، وكان شعاره : لا اساوي من حارب رسول الله بمن آمن به ونصره ، ولا ادل على ذلك من تقديمه لابناء المهاجرين والانصار على اهل مكة ، فاعطى الاولين الفي درهم ، وقدم اسامة بن زيد وهو ابن عبد من عبيد رسول الله على ابنه عبدالله بن عمر بن الخطاب ، لان ابناء المهاجرين والانصار اسلموا قبل اهل مكة ، ولان اسامة بن زيد كان الصق برسول الله من ابن عمر بن الخطاب واحب اليه .

اما قول غولد زيهر : بان مراعاة الجانب القبلي في تدوين الخراج كان سبباً اساسياً في فتح الباب لوضع الانساب والتزويج لها ، ففيه اغراق غير مشكور من مستشرق كبير ، لان هذه الانساب كانت موجودة كما قدمنا ، والقول باختراعها بعد ذلك يعد رجماً في التاريخ وتأويلاً ضعيفاً لأبسط قواعد الاستقراء والاستنتاج التاريخي .

العرب والقبيلة

وكان العرب تعيش قبائل مختلفة متفرقة ، لا يربطها بعضها مع بعض

الا هذه العصبية العربية التي كانت ضعيفة في كثير من الاحايين، وكانت القبيلة تعد وحدة قائمة بنفسها كوحدة الاسرة، بحيث كانت تنمحي فيها شخصية الفرد، فما يصيب الفرد من عار او شرف يصيب القبيلة كلها، فلما جاء الاسلام حاول القضاء على هذه العصبية القبلية، وان يضع مكانها الاخوة الدينية الاسلامية، فوفق في اول امره توفيقاً قليلاً، ثم لما انتهت الفتوح الاولى، واستقر العرب في مختلف الامصار التي صار فتحها، عادوا الى منازعاتهم الجاهلية، وعصبيتهم القبلية، وراحت القبائل تتفاخر بانسابها وحروبها وشعرائها وابطالها كما كانوا يفعلون في الجاهلية، وكان هذا الاختلاف الذي حاول محمد القضاء عليه، والذي عاد الى الظهور بعده سبباً اساسياً في انهيار اكثر الممالك العربية التي قامت في دمشق والاندلس وغيرهما من البلاد والامصار ...

ولما القول بان ديوان العطاء الذي اسسه عمر بن الخطاب كان سبباً من اسباب ازكاء العصبية بين القبائل فقول مردود، لان هذه العصبية كانت امراً واقعاً لا تحتاج الى ازكاء واحماس، والحياة العربية الاولى في العصر الاول والقرن الاول كان عبارة عن حياة عربية بدوية تعمل على التحضر فلا توفق في ذلك إلا على قدر، فكان من اثر ذلك هذا التفاخر بالعصبية والادلال بهذه الايام الجاهلية التي تمكنت فيها قبيلة من القبائل من الفتك بخصيمها من القبائل الاخرى، وتهاجى الشعراء كل يؤيد قبيلته ويذكر مفاخرها، ويعتز بامجادها كما فعل جرير والاخطل والفرزدق، فكان جرير مثلاً يفخر على الاخطل بقبيلتي تميم وقيس، مفضلاً اياهما على قبيلة الاخطل — وهي قبيلة تغلب — فيرد عليه الاخطل، كما يذهب الفرزدق الى المفاخرة باجداد اجداده، وآثار اهله، مما دعا القوم في هذا العهد، الى العناية بالانساب على طريقة علمية جديدة، كما

عنوا بغير ذلك من الوان العلم ، واخذ النسابون يكتبون الانساب ، كما اخذ المؤرخون يؤرخون الحوادث ، والفقهاء يدرسون التشريع ، والمحدثون يكتبون الحديث ... فلم يكن هناك والحالة هذه شيء جديد في قيام النسابين واهتمامهم بامر الانساب ، التي كانت كغيرها من علوم العرب لا تزال في صدور الرجال من الرواة ، وكان استقرار العرب ، قد دعا فيما دعاه ، الى تنظيم المعارف والعلوم على طرق جديدة تساعد على حفظها وعدم ضياعها ...

النسابون

ومن المفيد ان نقول ، ان شجرات الانساب للافراد لم توضع كما يظهر الا في القرن الثاني ، واما في القرن الاول ، فقد كان اهتمام القبائل بانسابها والتفاخر بها داعياً الى تنظيم هذه الانساب وكتابتها ، لان الحاجة عندئذ كانت تدعو الى ذلك قبل غيره ...

وقد اشتهر من بين النسابين البكري الذي روى عنه رؤبة بن الحجاج[1] ثم جاء بعده محمد بن السائب الكلبي وابنه المنذر بن محمد بن السائب الكلبي ، كما اشتهر معهما سحيم المكنى بابي يقظان المتوفي سنة ١٩٠ ، وكان من مشايخ المدائني ، ويروى عنه انه جمع نسب تميم وخندف ...

ويذهب بعض المؤرخين الى ان النسابين كانوا يتكلفون اللباقة والسياسة في مؤلفاتهم ، خوفاً من شر يلحق بهم ، فيما اذا نسبوا مثلبة لاحد من الناس ...

---

(١) الفهرست ص ٨٩

— ٣ —

الحياة الاجتماعية والبيئة

البدو في الجزيرة العربية

الحياة الاجتماعية

العرب من حيث حالتهم الاجتماعية ينقسمون الى قسمين : البدو وهم اغلب سكان الجزيرة ، والحضر وهم سكان المدن وما يقوم على اطرافها من مزارع وحدائق، وهؤلاء كانوا يكثرون في اليمن ، ويقلون في الحجاز ، اذا استثنينا مكة والمدينة والطائف .

وقد وصفنا قبلا كيف كان البدو يعيشون ، وكيف كان سكان المدن يتكلفون من الوان الحضارة ما تسوقه الحياة المستقرة المنظمة اليهم.

ونحن حين ندرس الحياة الاجتماعية في الجزيرة يجب ان نذكر خيام البدو التي هام في وصفها الشعراء ، كما كثر بكاؤهم على اطلالها والآثار الباقية منها بعد رحيل اصحابها او سكانها عنها ، وكانت الابل عماد الحياة في الجزيرة ، يأكلون من لحومها ويشربون من البانها ، ويكتسون من اوبارها ، ويحملون عليها اثقالهم ويقايضون عليهـــا في المقايضات ، كما يقومون بها ثروتهم ، ويفتدون بها اسراهم ، ويؤدون منها دية القتلى ، ويمهرون بها في الزواج ، فكل هذه الاسباب دعتهم الى العناية بتربيتها ، ودعتهم الى ان يكيفوا حياتهم وفاقاً لحياتها ، يرحلون من مكان الى آخر لاجلها ، ويتطلبون اماكن الدفء لتوليدها ، كما بنوا كثيراً من لغتهم عليها ، وضربوا فيها الامثال الكثيرة ، وتغنى الشعراء في وصفها ،

كما تفنوا باشعارهم في حدائها ...

وكانت لديهم الخيل يعنون بها ، ولكنها كانت متاع المترفين ، واما الابل فكانت متاع العرب جميعهم .

اما العلاقات بين القبائل العربية فكانت علاقات عداء غالباً ، ومن اجل هذا شغلت حياة القبائل والافراد الحروب والغزوات ، يتغنى بها الشعراء في قصيدهم ، ويتحدث بها الاعراب في منادرهم ، وكانت ظاهرة الاخذ بالثأر والانتقام شديدة عندهم ، طغت على كل ما عداها من حياتهم الاجتماعية ، بحيث مليء الشعر الجاهلي بوصف الوقائع والحروب والتمدح بالاخذ بالثأر ، والفخر بالانتصار ، والانفة من المذلة ، والاعتزاز بالقوة ، والحرص على الشرف دون الحياة والمال ، كما مليء بوصف آلات الحرب من رماح وأسنة وسهام ومجانّ ودروع وسيوف ، فسادت الاخلاق الحربية حياتهم ، وغمرتهم الوان الشجاعة والكرم والوفاء ، فاطنبوا في مدحها وعدوها غاية الغايات ..

وكما كان الصيد من متع الحياة عندهم ، كانت الخمرة فاشية بينهم ، فلا ترى شاعراً جاهلياً يتحدث عن حياته من غير ان يتحدث عن الخمر وكرمه اذا شرب ..

اما الحضريون وهم اهل الامصار والمدن فقد كانوا اقل شجاعة واكثر حباً للمال ، واكثر توفراً على اسباب الترف والنعيم ، وقد نبغوا في التجارة ، وجابت قوافل القرشيين البلاد طولاً وعرضاً كما فعل اهل اهل اليمن قبلهم ، فوصلوا الى غزة والبيت المقدس ودمشق وعبروا البحر الاحمر الى الحبشة ، وكانت ميناء جدة وتبعد عن مكة اربعين ميلاً واسطة عقد التجارة بين الحجاز والحبشة ، فكانت تحمل كنوزها الى القطيف في اقليم البحرين حيث تنقل في القوارب مع اللؤلؤ الذي

كان يستخرج من سواحل الخليج الفارسي الى مصب الفرات ..

ومن المؤكد ان هذه الصلات بين قريش والامم المتحضرة حولها ، قد افضى اليها بكثير من الفوائد الاجتماعية ، وزادها معرفة بالجماعات التي تعيش حولها والسياسات التي تحاك على اطرافها ، فارتقت مداركهم ، وحسنت ادارتهم لشؤون الكعبة وشؤونهم الخاصة واثرى بعضهم اثراء عظيماً ..

الحياة الدينية

اما حياة العرب الدينية فقد كانت خليطاً عجيباً ، فمنهم من عبد الكواكب كبعض اهل اليمن ، ومنهم من عبد القمر ككنانة ، وعبد قوم من لخم وخزاعة وقريش نجم الشعري ، وقوم منهم انكروا الاديان الاخرى ، وآخرون عبدوا الاصنام ..

وكانت الوثنية اكثر الاديان انتشاراً عند العرب ، وهي عبارة عن عبادة الاصنام والاوثان ومن اشهرها اللات والعزّى ، ومناة ، واقدمها مناة كان منصوباً على ساحل البحرين بين مكة والمدينة وكانت العرب جميعها تعظمه وتذبح له الذبائح ، وكان صنم اللات في الطائف ، وكانت العزى اعظم الاصنام عند قريش ..

وكان لقريش اصنام في جوف الكعبة وحولها اعظمها هُبل ، وكانت حياة العرب الى هذا كله متأثرة بهذه الاصنام فهم يتولونها بالهدايا الكثيرة ويذبحون عندها الذبائح ، وكان لاهل كل دار من مكة صنم يعبدونه ويتمسحون به عند السفر والاياب

ولقد انتشرت بين العرب اليهودية والنصرانية ايضاً وكان لكل منهما مناطق نفوذ ، فانتشرت اليهودية في المدينة او « يثرب » وحول

المدينة في فدك وخيبر ، وكان يهود يثرب ثلاث قبائل : بني النضير ، وبني قينقاع ، وبني قريظة ، وكانوا يقيمون في المدينة بين قبيلتي الاوس والخزرج ، وكانت العلاقات بين الطائفتين هانئة وادعة احياناً ، مضطربة احياناً اخرى ..

اليهود في بلاد العرب

وانتشرت اليهودية ايضاً في بلاد اليمن ، وتهوّد بعض الناس من كندة وكنانة ، واشتهر من شعراء اليهود السموأل بن عاديا .

والواقع انه لما ظهر الاسلام كان في الجزيرة العربية اربعة اديان : كان هناك الوثنيون كما قدمنا ، واليهود والنصارى ، والمؤمنون بالديانة الفارسية الزرداشتية .

وكانت الوثنية دين الاكثرية العربية ، واكثرها كان مقتبساً من العقائد الوثنية للدول العربية السابقة في اليمن ، كدول معين وسبا وحمير ، ومن المصادر التي بين ايدينا والموجودة في كتاب الاصنام لابن الكلبي وغيره ، نعرف ان الدين العربي كان عبارة عن عبادة الطبيعة ، فعبدوا الشمس والقمر والنجوم ، وبعض القبائل كانت تعبد انواعاً خاصة من الحجارة والاشجار والآبار ، وتعتبرها مقدسة ، وان فيها روحاً آلهية .

وبعض القبائل كان لها اصنامها الخاصة ، فكان « هبل » مثلاً كبير الاصنام في الكعبة ، وكان يلتف حوله عدد كبير من الاصنام التابعة للقبائل المختلفة .

وتاريخ دخول اليهودية الى بلاد العرب ليس معروفاً على وجه التحقيق والثقة ، ولا يبعد ان يكون بعض اليهود قد هاجروا الى بلاد العرب في

القرن الاول الميلادي بعد سقوط القدس في يد الرومان سنة ٧٠ مسيحية .

والواقع ان هذا الاختلاف الواقع حول هجرة بعض الجماعات اليهودية الى الجزيرة العربية وتاريخ هذه الهجرة لا يزال امراً واقعاً منظوراً حتى يومنا هذا ، فالمؤرخ « دوزي » في كتابه عن بني اسرائيل بمكة يحاول ان يثبت ان الهجرة الشمعونية التي ذكرت في العهد القديم وقعت قبيل عصر الملك داود حوالى عام ١٠٠٠ قبل المسيح ، واما « مرجليوث » في كتابه عن علاقة العرب بالبطون الاسرائيلية قبل ظهور الاسلام فيقرر ان الهجرة حصلت في عصر الملك حزقيا الذي حكم يهوذا — في فلسطين من سنة ٧١٧ — ٦٩٠ قبل المسيح .

ولكن المؤكد اليوم انه وجدت بطون يهودية في جهات يثرب وخيبر قبل مئات السنين من ظهور الاسلام ... وان الهجرة اليهودية الى هذه الجهات كانت في القرن الاول والثاني بعد الميلاد ، ومرد ذلك ازدياد عدد اليهود في فلسطين ، ومهاجمة الامبراطورية الرومانية لدولتهم وتدمير عاصمتهم كما ذكرنا ، وهذا ما يؤيده مؤرخو العرب .

ومن المؤكد ايضاً ان اليهود لم ينزلوا جهات يثرب وخيبر وغيرهما فاتحين غازين ، ولا كانوا يحملون بسياسة معينة يحاولون تطبيقها واقرارها وانما جاؤها هاربين من وجه الفتح الروماني ، ونزلوا في الوقت نفسه ارضاً خالية ، غير آهلة بكثير من السكان العرب ، فلم يحدث نزولهم ضجة ولا صخباً ولا اعتراضاً ..

ومن الغريب في امر المصادر اليهودية انها تغفل ذكر نزول اليهود الى الجزيرة العربية ، وهو ما حمل بعض المؤرخين المعاصرين على القول بانقطاع يهود الجزيرة العربية عن غيرهم من اليهود في خارجها ، كما ان

(١) الاغاني ... جزء ١٩ ص ٩٥ طبعة بولاق .

اليهود الذين نزلوا الجزيرة كانوا من انعدام الشخصية بحيث لم يشتهر بينهم احد بالرقي الفكري ، مع انهم كانوا اكثر من البدو معارف على الارجح ، ولعل سبب هذا ان البيئة الجديدة شلت قواهم الروحية والمعنوية ، كما انهم كانوا يخشون الظهور في بلاد جديدة ليس لهم فيها من نصير ولا مؤيد...

واما المصادر اليهودية فترد سبب اغفال يهود الخارج يهود الجزيرة الى انهم كانوا يعتبرونهم بعيدين عن اليهودية، والى انهم لم يخضعوا لقوانين التلمود خضوعاً تاماً ...

واما الاستاذ « شير » فيعتقد ان اليهودية في بلاد العرب كانت لها صبغتها الخاصة ، فكانت يهودية في اساسها ، دون ان تخضع لما يعرف بالقانون التلمودي ...

ويظهر من اقوال مؤرخي العرب ان بطوناً عربية كثيرة قد اختلطت بالعنصر اليهودي في الحجاز ، ولكن اليهودية عجزت عن التغلب على عقليتها وتقاليدها ، فبقي العرب عنصراً ممتازاً بعقليته امتيازاً ظاهراً ..

ولما نزل اليهود الجزيرة اقاموا الحصون والاكام على قمم الجبال ليتحصنوا بها في وقت الحرب حين يغزوهم العرب البدو الطامعين في اموالهم وحاصلاتهم الزراعية ، او حين تغزوهم بطون يهودية اخرى لسبب من الاسباب ، كما فعلوا في فلسطين يوم نزلوها مؤخراً ...

ويذهب « ولفنسون » الى ان فكرة اقامة الحصون على قمم الجبال في شمالي الجزيرة العربية قد حملها اليهود معهم من فلسطين حيث تكثر الجبال ، وتكثر في الوقت نفسه الاختلافات بين اليهود والشعوب الاخرى ..

---

(١) Gratez ج ٣ ص ٧٥ و ص ٥١

ومن هذه الحصون التي اقامها اليهود في بلاد العرب حصن الابلق للسموأل وحصن القموم لبني ابي الحقيق ، وحصون السلام والوطيح وناعم وغيرها في جهات خيبر .

اليهود والتجارة والزراعة

ولقد ادخل اليهود الى بلاد العرب انواعاً جديدة من الاشجار ، وطرقاً جديدة للحراثة والزراعة بالآلات ، مما لم يكن مثله عند عرب الحجاز ، الذين استفادوا منهم ، كما حفروا الآبار وشقوا الترع ...

واشتغل اليهود ايضاً بتربية الماشية ، والدجاج ، وبصيد الاسماك اذا كانوا على ساحل البحر ، وعمل نساؤهم على نسج الاقمشة ..

وكانت تجارة البلح والشعير والقمح خاصة بهم في شمالي الحجاز ، ولكثرة اموالهم كان العرب يرهنون عندهم منتوجاتهم ، وكان التعامل بالربا معروفاً وعاماً عندهم .

واشتهر اليهود بصناعة الصياغة التي اشتهر بها بنو قينقاع ، وكان لهم في يثرب حي خاص يعرف باسمهم .

وكانوا يزاولون صناعة السيوف والدروع وسائر الآلات الحديدية[1] .

وكانت لغة اليهود العربية ، مشوبة بالرطانة العبرية ، لانهم لم يتركوا لغتهم ، فكانوا يستعملونها في صلواتهم ودراستهم ..

وقد ذكر صاحب « فتوح البلدان » ان يهود يثرب كانوا يعلمون البدو الكتابة العربية ..

اليهود في اليمن

واختلف المؤرخون في الاسباب التي دعت الى ظهور اليهودية في ربوع

---

(١) المغازي للواقدي .

اليمن ، فقال البعض انهـــا كانت نتيجة النضال العنيف الذي وقع بين اليهودية والنصرانية ، فظهرت الاولى على الثانية .

ويرى البعض الآخر ان العامل سياسي ديني ، لانه لمـــا نهد اباطرة الرومان للسيطرة على الاقاليم العربية ، وارسلوا وفوداً من الرهبان الى اليمن لتهيء الجو لذلك ، فطن ملوك حمير الى الخطر الذي يهددهم فاعتنقوا اليهودية ليقاوموا دينـاً توحيدياً بآخر على غراره وشاكلته ، خصوصاً وانه لم يكن لليهود دولة تؤيدهم وتعضدهم فكان خطرهم والحـــالة هذه هيناً رقيقاً ، ومن هنا نفهم السر في مقاومة السلطات اليمنية للرهبان ، واضطهادهم اهل نجران ، وخوفهم من الحبشة ، لانهم جميعاً كانوا يعملون لملوك القسطنطينية وسلطانها السياسي ..

ولما انهار سلطان اليمن ، وضعف انتاجها ، وكان ما كان من سيطرة الاحباش عليها ، هاجرت بعض القبائل اليهودية من اهلها الى شمـــالي الجزيرة ، خصوصاً بعد اضطهاد الاحباش لليهودية ومطاردة اهلها ..

ويقرر المؤرخ « كراتز » ان بطون الاوس والخزرج في يثرب لم تصارح اليهود بالعداوة الا بعد النكبة التي حلت باليهود في اليمن ، وبعد ان فقدوا سلطانهم فيها ... ويقول بعض المؤرخين ان البطون العربية بقيت عصوراً طويلة على موالاة اليهود ومناصرتهم ، الى ان قامت دولة غسان تنصب المكايد لليهود ، وتعرض عليهم زعماء الاوس والخزرج ، ليفتكوا بهم ، وكان هذا بايعاز من الدولة الرومانية طبعاً التي ارسلت اساطولها لمساعدة الحبشة في كفاحها ضد اليمن لما كان اليمن يهودياً تسيطر عليه دولة عربية يهودية ... او آمنت باليهودية . ويعتقد ولهوزن ان هذا الكفاح ضد اليهودية انتقل من اليمن الى الحجاز ، وانه كان عنيفاً جداً ،

(١) هذا قول هالفي ، وكراتز ، وولهوزون .

والاخبار عنه قليلة ، ولم يصل الينا من اخباره الا يوم (بعاث) وقد وقع قبل الهجرة بخمسل سنوات ، ويوم كان رسول الله لا يزال في مكة .

وقد ظل اليهود بعد هذا اليوم يحتفظون بمكانتهم في الحجاز عامة ويثرب خاصة ، حتى ان الاوس والخزرج كانتا تحسبان لقوتهم حساباً كبيراً ، لانهم كانوا ينعمون بالمال ويملكون السلاح ، ويقيمون في الحصون . ويدل يوم (بعاث) على ان اليهود كانوا اهل كفاح ونضال ايضاً ، وانهم كانوا قوة عسكرية لها خطرها في الحجاز .

وكان من آثار هذا اليوم ونتائجه ، ان ضعفت روح العداوة والحقد في نفوس البطون العربية واليهودية في يثرب ، وراحوا يفكرون بالانصراف لاعمالهم هادئين وادعين ... كما خلق فيهم ميلاً للاتحاد ، حتى ارادوا فيما يقول مؤرخو العرب ان يملكوا عليهم رجلاً من بني الخزرج ، ولولا هجرة رسول الله الى المدينة وظهور الاسلام فيها وبين اهلها لكان هذا امراً مقضياً ...

فاذا جاء القرن الخامس والسادس الميلادي وجدنا تاريخ اليمن عبارة عن الخلاف بين اليهود والمسيحيين في نجران ، وفي الشمال كان اليهود يسكنون تيما وخيبر ، ويثرب ، وفدك ، وغيرها ، مما هو اقل منها شأناً وخطراً ، وفي هذه المناطق الصغيرة المتفرقة عاش اليهود لانفسهم يعملون في الزراعة ، ويتاجرون بالمجوهرات ، ويستثمرون الاموال التي لديهم ، وليس من شك في ان هذه المستعمرات اليهودية قد اثرت تأثيراً قوياً في الحياة العقلية والاجتماعية والتجارية للجاهليين من اهل الحجاز ..

واما المسيحيون فقد نزلوا الجزيرة بعد اليهود حتماً ، وكان لهم مركز في اليمن خصوصاً في نجران ، حيث كانوا ينالون تأييد الدولة

الحبشية المسيحية السياسي .

وكانت مملكة الحيرة مسيحية باكثرية سكانها على الارجح ، ومثل هذا يقال في قبيلتي تغلب وبكر ، وكانا يسكنان شمالي الجزيرة ، كما ان المسيحية كانت تتقدم وتتبسط في شرقي الاردن ، وعلى الحدود السورية وفي اليمن ، وكانت صبغتها نسطورية شرقية ، ومحمد بن عبد الله نفسه استمع الى بعض المسيحيين يدعون الى دينهم في سوق عكاظ .

اما الزاروستيرية الفارسية فلم يكن لها تأثير في الجزيرة ، وكان تأثيرها ضعيفاً جداً في شرقي الاردن ، ولكن المفروض ان العرب في هذه المناطق كانوا يعرفونها ، ولكن الاسلام لم يعرفها تماماً إلا بعد الفتح ...

وكان في العرب طائفة لم تأخذ بدين من الاديان ، نزعت الى عبادة آله واحد ، وكانوا يسمونهم الحنفاء ، ومن هؤلاء ورقة بن نوفل وقس بن ساعدة الايادي احد فصحاء العرب ...

اسواق العرب

ومن ابعد الاماكن اثراً في الحياة العربية هذه الاسواق التجارية التي كان يقيمها العرب في طول الجزيرة وعرضها ، كاسواق صنعا ، وحضرموت ، ومحار ، والشمر ، وهذه كان يقصدها اهلها واقرب العرب اليها ، واما اسواق عكاظ ، والمربد ، في شمالي الجزيرة فكانت عامة يقصدها جميع العرب ، من مختلف الجهات والامصار ، ومن هنا كانت شهرتها واثرها الثقافي والاجتماعي والادبي ..

وعكاظ تقع في الجنوب الشرقي من مكة ، وعلى بعد عشرة اميال من الطائف ونحو ثلاثين ميلاً من مكة ، في مكان منبسط وواد فسيح فيه

نخيل وماء .

وسبب اهمية سوق عكاظ كما يقول الرواة :

١ – ان موعد انعقادها كان قبيل الحج ، وهي قريبة من مكة ، وبها الكعبة فمن اراد الحج من جميع قبائل العرب ، سهل عليه ان يجمع بين الغرض التجاري والاجتماعه بفشيانه سوق عكاظ قبل تأدية الحج ، وبين الغرض الديني بالحج .

٢ – ان موسم السوق كان في شهر من الاشهر الحرم [١] ، على قول اكثر المؤرخين ، والعرب كانت في « الشهر الحرام » لا تقرع الاسنة ، فيلقى الرجل قاتل ابيه او اخيه فيه فلا يهيجه تعظيماً له ، وفي انعقاد السوق في الشهر الحرام مزية واضحة ، وهي ان يأمن التجار فيه على ارواحهم ، وان كانوا احياناً قد انتهكوا حرمة الشهر الحرام فاقتتلوا كالذي روي في الاخبار عن حروب الفجار ، ولكن هذا كان نادراً والقتل في هذا الشهر كان عملاً قبيحاً مستهجناً .

ويصف المرزوقي هذه السوق فيقول :

« كان في عكاظ اشياء ليست في اسواق العرب ، كان الملك من ملوك اليمن يبعث بالسيف الجيد والحلة الحسنة والمركوب الفاره ، فيقف بها وينادي عليه ليأخذه أعز العرب ، يراد بذلك معرفة الشريف والسيد فيأمره بالوفادة عليه ويحسن صلته وجائزته ، ويروي ابن الاثير عن ابي عبيدة « ان النعمان بن المنذر لما ملكه كسرى ابرويز على الحيرة كان يجهز كل عام لطيمة – وهي التجارة – لتباع بعكاظ » .

فترى من هذا ان بلاد العرب من اقصاها الى اقصاها كانت تشترك

---

(١) كانت اشهر الحج عندهم اشهراً حرماً يعقدون فيها اسواقهم التجارية حول الحرم فلا يجرؤ احد على الاخلال بحرمة البيت واثارة الشقاق والخلاف والحرب حوله ...

في هذه السوق .

واختلفت الاقوال في موعد انعقادها ، واكثرها على انه كان في ذي القعدة من اوله الى عشرين منه ، او من نصفه الى آخره .

وكانت سوق عكاظ تقوم بوظائف شتى فهي : متجر تعرض فيه السلع على اختلاف انواعها ، يعرض فيه الادم والحرير والوكاء والحذاء والبرود من المصب والوشي وغيرها ، ويباع به الرقيق ويعرض فيه كل سلعة عزيزة وغير عزيزة ، فما تهديه الملوك يباع بسوق عكاظ ، ويتقاتل ابن الخمس مع الحارث بن ظالم فيقتله ابن الخمس ويأخذ سيف الحارث يعرضه للبيع في عكاظ ، وعبلة بنت عبيد بن خالد يبعثها زوجها بانحاء سمن تبيعها له بعكاظ .

ولم تكن العروض التي تعرض في سوق عكاظ قاصرة على منتجات جزيرة العرب ، فالنعمان يبعث الى سوق عكاظ بمتجر من حاصلات الحيرة وفارس لتباع بها ، ويشتري بثمنها حاصلات اخرى ، بل كان يباع في عكاظ سلع من مصر والشام والعراق ، فيروي المرزوقي انه قبل البعث بخمس سنين حضر السوق من نزار واليمن ما لم يروا انه حضر مثله في سائر السنين ، فباع الناس ما كان معهم من ابل وبقر ونقد وابتاعوا امتعة مصر والشام والعراق .

وكانت السوق تقوم باعمال مختلفة اجتماعية ، فمن كانت له خصومة عظيمة انتظر موسم عكاظ ، وكانوا اذا غدر الرجـــل او جنى جناية عظيمة انطلق احدهم حتى يرفع له راية غدر بعكاظ فيقوم رجل فيخطب بذلك الغدر فيقول : الا ان فلان ابن فلان غدر فاعرفوا وجهـه ، ولا تصاهروه ولا تجالسوه ، ولا تسمعوا منه قولاً ، فان اعتب ، وإلا جعل له مثل مثاله في رمح فنصب بعكاظ فلعن ورجم .

ومن كان له دين على آخر انظره الى عكاظ .

ومن كان له حاجة استصرخ القبائل بعكاظ كالذى حكى الاصفهاني: ان رجلاً من هوازن أسر فاستغاث بقوم فلم يغيثوه فركب الى موسم عكاظ وأتى منازل مذحج يستصرخهم .

وكثيراً ما تتخذ السوق وسيلة للخطبة والزواج فيروي الاغاني انه اجتمع يزيد بن عبد المدان وعامر بن الطفيل بموسم عكاظ ، وقدم اميـة ابن الاسكر الكناني وتبعته ابنة له من اجمل اهل زمـانها فخطبها يزيد وعامر . فتردد ابو هاشم ، ففخر كل منهما بقومه وعدد فعالها في قصائد ذكرها .

ومن كان صعلوكاً فاجراً خلعته قبيلته — ان شاءت — بسوق عكاظ وتبرأت منه ومن فعاله ، كالذي فعلت خزاعة :

« فقد خلعت قيس بن منقذ بسوق عكاظ، واشهدت على نفسها بخلعها اياه ، وانها لا تحتمل له جريرة ، ولا تطالب بجريرة يجرها احد عليه » .

ومن كان داعياً الى اصلاح اجتماعي او انقلاب ديني كان يرى ان خير فرصة له سوق عكاظ ، والقبائل من انحاء الجزيرة مجتمعة ، وكثيراً ما كانوا يرون قس بن ساعدة يقف بسوق عكاظ يدعو دعوته ، ويخطب فيها خطبته المشهورة على جمل له ، فيرغب ويرهب ويحذر وينذر .

وكان لعكاظ اثر كبير لغوي وادبي ، فقد رأينا قبائل العرب على اختلافها من قحطانيين وعدنانيين تنزل بها ، وملك الحيرة يبعث تجارته اليها ، ويأتي التجار من مصر والشام والعراق ، فكان ذلك وسيلة من وسائل تفاهم القبائل ، وتقارب اللهجات ، واختيار القبائل بعضها من بعض ما ترى انه اليق بها وانسب لها ، كما ان التجار من البلدان المتمدنة كالشام ومصر والعراق كانوا يطلعون العرب على شيء مما رأوا من احوال

تلك الامم الاجتماعية ، وفوق هذا كانت عكاظ معرضاً للبلاغة ومدرسة بدوية يلقى فيها الشعر والخطب وينقد ذلك كله ويهذب ، قال ابو المنذر: « كانت بعكاظ منابر في الجاهلية يقوم عليها الخطيب بخطبته وفعاله وعدّ مآثره وايام قومه من عام الى عام » .

وكان على سوق عكاظ كلها رئيس اليه امر الموسم واليه القضاء بين المتخاصمين ، فكان يقضي بعكاظ محمد بن سفيان بن مجاشع .

ومن العسير جداً ان نحدد بدء عكاظ ، فلم نجد في ذلك خبراً يصح التعويل عليه ولكنها على كل حال ليست قديمة جداً وقد لا تمتد الى اكثر من مائة سنة قبل الاسلام .

واستمرت عكاظ في الاسلام ، وكان يعين فيها من يقضي بين الناس ، فعين محمد بن سفيان بن مجاشع قاضياً لعكاظ ، وكان ابوه يقضي بينهم في الجاهلية وصار ذلك ميراثاً لهم .

ولكن يظهر ان هذه الاسواق ضعف شأنها بعد الفتوح فأصبحت البلاد المفتوحة اسواقاً للعرب خيراً من عكاظ ، وصار العرب يغشون المدن الكبيرة لقضاء اغراضهم ، فضعفت اسواق العرب ومنها عكاظ ، ومع ذلك ظلت قائمة وكان آخر العهد بها قبل سقوط الدولة الاموية ..

فعكاظ عاصرت العصر الجاهلي الذي كان فيه ما وصل الينا من شعر وادب ، وجرت فيها احداث تتصل بحياة النبي صلى الله عليه وسلم قبيل مبعثه ، ومهدت السبيل قبيل الاسلام لتوحيد اللغة والادب ، وعملت على ازالة الفوارق بين عقليات القبائل ، وقصدها النبي صلى الله عليه وسلم يبث فيها دعوته ، وعاصرت الاسلام على عهد الخلفاء الراشدين والعهد الاموي ، ولكن حياتها في الاسلام كانت اضعف من حياتها قبله ، وبدأ

ضعفها من وقت الهجرة لما كان من غزوات وحروب بين مكة والمدينة او بين المؤمنين والمشركين ، فلما فتحت الفتوح رأى العرب في اسواق المدن المتحضرة في فارس والشام والعراق ومصر عوضاً عنها ، ثم كانت ثورة ابي حمزة الخارجي بمكة فلم يأمن الناس على اموالهم فخربت السوق ، وختمت صحيفة لحياة حافلة ذات اثر سياسي واجتماعي وادبي .

المربد

اما (المربد) فضاحية من ضواحي البصرة في الجهة الغربية منها مما يلي البادية ، وكان سوقاً للابل ، وهو واقع على طريق من ورد البصرة من البادية ومن خرج من البصرة اليها ، ويظهر انه نشأ سوقاً للابل ، انشأه العرب على طرف البادية يقضون فيهم شؤونهم قبل ان يدخلوا الحضر او يخرجوا منه .

وكان هذا السوق اقل خطورة من سوق عكاظ ، وكان سوقاً للتجارة ، وسوقاً للدعوات السياسية ، وعاشت هذه السوق الى العصر العباسي ، فكانت اطول عمراً من عكاظ ، وان كانت اقل منها شأناً واهمية .

ومن المؤكد ان حالة العرب الادبية كانت تساوق حياتهم التجارية تقدماً وتبسطاً وازدهاراً ، واذا كان التعليم في الجاهلية لم يكن منتشراً بين العرب كل الانتشار ، فان مغامراتهم التجارية ، وتجوالهم من منطقة الى اخرى ، قد افادهم كثيراً ، وجعلهم يتصلون بالامم المجاورة لهم والتي كانت اكثر منهم علماً ومعرفة وثقافة ، فخرج من هذا الاختلاط هذه الحركة الادبية التي فشت قبل الاسلام في الشعر خصوصاً ، والتي بلغت درجة سامية من الرقي ، تدل على انها ليست وليدة هذه السنوات القليلة التي سبقت الاسلام ، وانما هي قديمة تضرب في الجاهلية لا اقل من مائتي

سنة على الارجح .

وسبب ذلك ان ما وصلنا من الشعر الجاهلي كامل في تعبيره ، راق في معانيه ، وهذا يستحيل ارتجالا وعفواً ، فلا بد ان يكون قد سبقه شعر اقل منه اتزاناً ، وأدنى تعبيراً .

وكان الشاعر الى ذلك ضروري لكل قبيلة عربية ، فهو الذي يرد بشعره كيد اعدائها ، ويحمسها في الحرب ، ويصف مناقبها ، ويتبسط في تاريخها ومفاخرها ، فالشاعر اذن كان داعية سيارة لقبيلته ، وصحيفة تدافع عنها ، وترد جور الخصوم وتبني لها المجد الذي تستحقه والذكرى التي هي خليقة بها ، وكان الشعراء الجاهليون من ارقى الطبقات عقلاً ، وأرقهم شعوراً ، سبقوا قومهم الى ادراك كثير من حقائق الحياة فصاغوها في شعرهم ، كما نعتقد بحق انه اصدق وصف للحياة في العصر الجاهلي ، واذا كانت غاية الادب ان يصف الكاتب الحياة في عصره ، فشعراء الجاهلية قد وفقوا في ذلك توفيقاً يدعو الى الاعجاب والاكبار .

— ٤ —

مكة وتاريخها قبل الاسلام

مكة طريق التجارة

في تاريخ مكة بعض الغموض ، واغلب الظن انها ترجع في تاريخها الى مئات تصعدت من الاعوام قبل الاسلام ... وهي الى ذلك تقع في طريق القوافل التي كانت تضرب الارض في الجزيرة قبل الاسلام وبعده بقليل .

فاذا كان ما تقدم امراً واقعاً ، فهل كانت مكة في موقعها الجغرافي من الحجاز تمثل مركزاً تجارياً خطيراً يكاد يساوق المراكز التي كانت تحتلها هذه المدن التي كانت تصل بين البحر المتوسط والهند، والتي ظفرت بسبب مركزها هذا بشيء من الخطورة والسلطان في عصور مختلفة من التاريخ القديم ؟

هذا ما يحاول بعض المؤرخين اقراره والترويج له ، وهي بعد نظرية ليست تخلو من حقيقة واقعة ، يؤكدها التاريخ وتؤكدها هذه المصادر العديدة التي يقوم عليها التاريخ .

ان في التاريخ القديم كثيراً من الحوادث التي لا يمكن تفسيرها تفسيراً مرضياً — خصوصاً ما يتصل منها بالشرق — الا ان نقول بان الغاية من وقوعها ، والغرض الذي كان يرمي اليه اصحابها هو الوصول الى طريق الهند عن طريق الشرق ، بمختلف الاحاييل والسبل ، سواء أكانت حربية ام سياسية ام بالاتفاقات الدولية .

وهذه الظاهرة آمن بها اباطرة الرومان ، كما آمن بها محمد بن عبد الله

نفسه ، فقد كتب المؤرخ توربين[1] يقول : ان محمداً كان يحلم بان يجعل بلاده مركزاً لطرق التجارة بين الهند والشرق الادنى ، ويذهب غيره الى ان رسول الله كان صاحب سياسة تجارية ولعله حاول اقرار السياسة التجارية التي كانت تسير عليها مكة قبل الاسلام .

وهذه النظرية مع ما يشوبها من ضعف في مصادرهـا ، وصعوبة في جمع الوثائق التي تؤيدها من كتب السيرة وغيرها ، يستطاع تفسيرها بان الرسول نفسه ، لما اراد انشاء هذه الامة العربية انشاءً جديداً وتوحيدها توحيداً تاماً ، لم يكن يجهل ان بناء الامم وانشاء الممالك لا يقوم على الوسائل الروحية وحدها ، وانما يجب — ليظل العمل الجديد قوياً متيناً — ان تدعمه الوسائل الاقتصادية التي تكفل لسكان هذه الامة الجديدة رخاء متصلاً يساعدها على تعزيز قواتها ، وبسط نفوذها والمحافظة على حرياتها واستقلالها وطرق مواصلاتها بعضها مع بعض .

ويتبسط المستشرقون في كيف ورث اباطرة القسطنطينية هـذه السياسة التجارية الهندية من اباطرة رومية ، وكيف راحوا يحاولون تمزيق الحصار القائم بينهم وبين هذه الطريق ، التي كان الفرس يستولون عليها بوجودهم في الخليج العجمي وسيطرتهم على العراق ، ولتسهيـــل مهمتهم هـذه فتحوا الطرق العسكرية ، وانشأوا المواصلات التجـارية والمحطات بين امصارهم المختلفة حتى الحدود الفارسية ، كما راحوا يحاولون الاتفاق مع الحبشة والوصول الى البحر الاحمر ، علهم يتصلون بالهند عن طريق حر ، لا يكون للفرس وغير الفرس من تأثير ولا سيطرة عليه .

ومن المفروض ان الحبشة التي فطنت الى اغراض السياسة الرومانية البيزانطية ، واخذت تسايرها وتعمل على تنفيذها ، لم تنس حظهـا من

1) Histoire de la vie de Mohamet I 329.

الغنيمة ، ونصيبها من الظفر التجاري فيما اذا كان الطريق التجاري العربي حراً مفتوحاً ، كما ان سياستها العسكرية التي اتبعتها في ذلك الحين وفي اليمن خاصة لا يمكن ان تفسر الا برغبتها في ان يكون هذا الجزء من البلاد العربية تحت سلطانها ، حتى تسيطر على باب المندب وهذا بدوره يسيطر على الطريق البحري الى الهند . وكانت طريق الهند في هذا العهد — وقبل ظهور الاسلام — برية وبحرية ، وكان يصار الى نقل البضائع التجارية براً بطريق البلاد العربية الى الخليج العجمي حيث يصار الى نقلها بعد ذلك بحراً الى الهند ، وكان هذا الطريق اقصر الطرق واقلها خطراً ، ولكن السياسة ومسائل الحدود المتشابكة ، كانت تلعب فيه دوراً عظيماً خطيراً .

وهناك طريق آخر كان يصل بين البحر المتوسط والخليج العجمي — عدا طريق العراق — وهو طريق الصحراء الذي يمر بتدمر ، وهذا ما يفسر لنا السبب الذي حمل بعض العرب في العهد القديم على السكنى حول ماء تدمر ، كما حمل جماعة اخرى من العرب البدو على المقام حول بئر زمزم في مكة ، يوم لم تكن مكة موجودة ، والمستشرق «سبرنغر» يذهب حين يصل الى هذه النتائج الى القول : « بان العرب كانوا اول من فتح طريق التجارة العالمي في التاريخ القديم . »

وعلى هذه النظرية يمكن تفسير كثير من العوامل التاريخية التي حدثت في البلاد العربية ، فليس من شك في ان قيام هذا الطريق التجاري في العهد القديم كان من العوامل الفعالة في نشوء كثير من المدن والممالك وتقدمها ، كتدمر والحيرة ، ودومة الجندل ، وبترا ، وبعض مرافىء الحبشة على البحر الاحمر ، واما ممالك اليمن وحضارتها الرائعة فلا يمكن تفسيرها إلا بانها كانت متصلة بالهند اتصالاً وثيقاً مكنها من

نقل البضائع من الشرق الادنى الى الهند ومن الهند الى الشرق ، فزاد هذا في غناها وعزز ثروتها ، فلما تبدل الطريق انهارت كل هذه المدن والممالك التي كان هذا الطريق سبب ظهورها وتقدمها ..

ومن المؤكد ان التجارة بين البحر المتوسط والهند بلغت اوجها في العهدين الاموي والعباسي ، فقد اصبحت كل هذه البلاد التي كانت ممزقة الى دول وممالك مختلفة دولة واحدة ، فعادت طريق التجارة بين البحر المتوسط والهند تسلك طريقاً جديداً ، غير طريق الصحراء ، لان طريق الصحراء لم تكن طريقاً طبيعية ، وانما فرضتها الحدود التي كانت تقوم بين الامبراطوريتين البيزانطية والفارسية ، فلما انهارت الامبراطورية الفارسية ، واستولى العرب على الاقسام الشرقية للامبراطورية البيزانطية ، اصبحت الطريق الطبيعية من سورية وفلسطين الى العراق الى الهند سهلة لا حواجز فيها ، فضعف شأن الجزيرة العربية وقلّ خطرها ، ولم يعد لمكة والمدينة وهذه الاسواق التي كانت تقام في عكاظ والمربد وغيرها من قيمة عملية تجارية .

ولكن هذه الطريق نفسها لم تدم إلا ما يقارب الثلاثمائة سنة ، فلما تمزقت الامبراطورية العربية الى ممالك صغيرة ، واصبح الطريق التجاري العراقي الى الهند صعباً قليل الامان ، انتقلت التجارة الى البحر الاحمر ، واصبحت عدن مركز التجارة العربية والهندية ، تساوق الاسكندرية في الاهمية والعمران .

هذه الناحية التجارية فطن لها اهل مكة لما قام رسول الله يدعوهم الى الاسلام ، فقد أحسوا ان حياتهم وتجارتهم وثروتهم معلقة بهذه الطريق التي كانت تمر بارضهم والتي كان تجارهم والقبائل المختلفة الذين كانوا يتصلون اتصالاً مباشراً بهذه الطريق التجارية عن طريق تقديم الجمال

اللازمة للنقل ، او المحافظة على القوافل المسافرة ،يعيشون من خيراتها ، ويتغذون منها ، وهو ما دعاهم الى مقاومته ومحاربته بمحافظة منهم على تقاليدهم وما ينعمون به من تجارة وثراء وحياة اجتماعية كانوا راضين بها قانعين فيها .

مكة في اواخر القرن السادس

وفي اواخر القرن السادس الميلادي ، وبسبب هذه الحروب المتتابعة التي كانت تقع بين الفرس والروم ، ظفرت مكة والطايف ببعض الفوائد الاقتصادية القيمة .

وكان من نتيجة هذه المعارك التي حدثت بين الدولتين ان توترت العلاقات الاقتصادية والصلات التجارية بين امصار الامبراطوريتين، وان كان من اثر ذلك اضمحلال المحطات التجارية التي كانت مزدهرة في ارض تدمر ، ومملكة النبط وبترا ، وانتقلت طرق التجارة من سورية والعراق الى ارض الحجاز ، وكذلك وجدت مكة نفسها بين ليلة وضحاها مركز تجارة وثروة رائجة ، بعد ان كانت وفي الماضي على الارجح محطة تجارية من هذه المحطات الخفيضة الصوت ، القليلة الخطر ، لنقل تجارة الشرق خصوصاً العطور الى امصار الامبراطورية الرومانية .

وكان مركز مكة في الحجاز مساعداً لها على القيام بمهمتها التجارية هذه ، لأنها كانت قريبة من سورية والعراق والحبشة ، وكان لهذه الاخيرة علاقات معها ، لان وجود جماعة من اهل الحبشة يقيمون في مكة ، يدل على قوة هذه العلاقة وخطرها .

ثم ان هجرة المسلمين الاولى والثانية الى البلاد الحبشية دون غيرها تؤيد وجود هذه العلاقة ، كما لا يجب ان ننسى اهتمام الحبشة بطريق الهند ،

ووقوع مكة في وسط هذا الطريق .

وليس هناك من شك في علاقات تجار مكة من بني امية وبني مخزوم وغيرهم مع البلاد التي حولهم خصوصاً سورية وفلسطين ، كما ان الامبراطورية البيزانطية كانت بحاجة ملحة الى البخور لكنائسها ، والحرير لملابس رجالها وكبّارها ، والعطور والاحجار الثمينة لحياة الترف التي كان يحياها رجالها والتي كانت تصدر جميعها من الهند والشرق الاقصى بطريق مكة ، وكانت الكميات التي تحتاج اليها الامبراطورية من هذه الاصناف كبيرة جداً ، مما حمل العرب الاذكياء على الاستفادة من هذه الطلبات الملحة ، فرفعوا اسعارها وقاموا يعملون ، إما نقلة لهذه التجارة على الجمال ، واما حفظة للقوافل ، او تجاراً يشترون بضائع الشرق لبيعها في الغرب ، ولا ادل على ذلك من ان عير قريش قبيل معركة بدر ، كانت تقدر بما يقارب الخمسين الف دينار وهو مبلغ عظيم اذا قيس بعملة هذه الايام .. فكيف بسعر العملة في الماضي وقدرتها على الشراء الذي يبلغ اضعافاً مضاعفة ما في ذلك شك ..

وفي التوراة ما يدل على ان العرب كانوا تجاراً من اقدم الازمنة التاريخية ، ويؤكد سترابون : « ان كل عربي كان تاجراً في عهده » وهو ما اثار حسد البيزانطيين والفرس والحبشة ، فراحوا يحاولون وضع هذه البلاد تحت نفوذهم للسيطرة على طريق الهند .

ولما انتهت الحرب بين الفرس والروم وذلك قبيل ظهور الاسلام ، اخذ الحجازيون خصوصاً سكان مكة وتجارها ينشئون العلاقات الدبلوماسية مع عظيم بصري وعظيم البحرين [1] وغيرهما من الامراء الذين كانوا يحكمون الامصار المجاورة ، ومن المفروض ان هذه العلاقات

---

(١) البغوي : مصابيح السنة .

الدبلوماسية كانت مدرسة موفقة للقرشيين فيما بعد ، وفي المصادر البيزانطية ما يدل على ان الرومان لم يقبلوا بالباب المفتوح وانما فرضوا على العرب بيع بضائعهم في اماكن معينة ، « كابلة » و « غزه » و « القدس » في فلسطين و « بصري » في سوريا ، واما في دمشق فيظهر ان التجارة كانت تقع خارج اسوارها ، ومثل هذه الاتفاقات صار اقرارها ايضاً مع كثير من زعماء القبائل في الجزيرة ، كقبائل قيس ، واقيال اليمن ، وامراء اليمامة ، وامراء غسان ، وملوك الحيرة ، وتنص كلها على السماح لسكان مكة بالاتجار في بلادهم والمرور في ارضهم في طريقهم الى ارض غيرهم ، حيث يجدون فيها الرزق والامن والمتجر الحسن [1] .

ولكي تحافظ مكة على مصالحها الخاصة فرضت على القوافل التي تمر بارضها اتاوة حسنة ، كما سمحت لنفسها بان ترث من يموت بارضها من الاغراب .

والظاهر ان قريشاً وثقيف — وهذه كانت تسكن الطائف — كانتا تسيطران على التجارة في الحجاز دون غيرهما من القبائل الاخرى ، وتستخدمان الاعراب البدو لنقل المتاجر وحماية القوافل ، وكانت قريش قبل ظهور « قصي » تحتل الشعاب والجبال واطراف مكة وما حولها ، وكانت متفرقة ، ضعيفة الصوت ، ذليلة البقاع [2] ، حتى تمكن قصي من ادخالها الى مكة ... ثم تمكنت مع الزمن من السيطرة على خزاعة التي كانت تسكنها قبلها ... ثم على الكعبة والمدينة القائمة حولها ، ولعل هذا الامر وقع في اواخر القرن الخامس الميلادي ، على الارجح ، وذلك قبل

---

(١) الطبري .

(٢) البلاذري ... الانساب ... ابن هشام ... والازرقي .

ميلاد محمد بن عبد الله بماية سنة .

تاريخ مكة وغموضه

ومن المؤكد ان العمالقة كانوا اول من سكن مكة ثم خلفتهم قبيلة جرهم اليمنية عليها ، وفي عهدهم نزلها اسماعيل بن ابراهيم وصاهر الجرهميين وسكن بينهم ، فلما زاره ابراهيم فيها ، رفعا القواعد من البيت الحرام باذن الله ، اما كيف رفع ابراهيم البيت مثابة للناس وامناً ، ليتوجه الناس فيه الى الله وحده ، ثم اصبح بعد ذلك موئل الاصنام وعبادتها ، وكيف كانت طقوس العبادة تؤدى في عهد ابراهيم واسماعيل ؟ ومتى تغيرت وتبدلت ، فهذا ما لا يحدثنا عنه التاريخ في كثير ولا قليل[1].

ولما مات اسماعيل ، تولى بعده ابنه نابت ، وهو اكبر اولاده ، ثم تولاه ولاة من جرهم ، واستمرت ولايتهم عليه الى سنة ٢٠٧ بعد المسيح .

وظل امر مكة لجرهم بعد ان غلبوا العماليق عليها الى عهد مضاض بن عمرو ابن الحارث ، وراجت تجارتها في عهدهم ، كما نضب ماء زمزم ، واخذ عرب خزاعة يفكرون في الوثوب الى مناصب الامر في البلد الحرام .

واغرقت جرهم في ترفها ولهوها ، فأحزن ذلك مضاض بن عمرو وادرك ان الامر زائل عنهم ، فأعمق حفر زمزم وعمد الى غزالتين من ذهب كانتا مع طائفة من الاموال بالكعبة ، فدفنها بقاع البئر واهال الرمال عليها ، وخرج معه بنو اسماعيل عن البلد الحرام ، ووليت خزاعة

---

(١) يقول « ستوك هرغونيه » : « انه ليس بعيداً ان يكون المسيحيون العرب في الجاهلية قد تكلفوا الحج الى الكعبة ، ولا يبعد انهم اعتذروا عن عملهم هذا ، فقالوا ان ابراهيم هو الذي وضع اساسها .

« ويذكر اسماعيل في التوراة كأمير عربي ، واما ابراهيم ، فلا يذكر انه زار البلاد العربية او الجزيرة العربية بنوع خاص ... »

الامر فيه ، وظلت تتوارثه حتى آل الى قصي بن كلاب الجد الخامس للنبي عليه السلام .

اجداد محمد

ولما عاد قصي الى مكة بعد اعوام وذلك سنة ٤٠٠ م ، كانت سدانة البيت في خزاعة لحليل بن حبشية فتزوج قصي ابنته ، وعظمت تجارته وفشا امره ، حتى آلت اليه سدانة البيت ومفتاح الكعبة وحتى تمكن آخر الامر من اجلاء خزاعة عن البيت الحرام بمعونة قريش وبعض القبائل الاخرى ..

ولما تم لقصي امر مكة ، جمع قريشاً وامرهم ان يبنوا بها ففعلوا ، وبنى هو « دار الندوة » يجتمع فيها كبراء اهل مكة تحت امرته ليتشاوروا في امورهم ، ولم يكن يتم امر إلا بموافقتهم ، فلم تكن تنكح امرأة او يتزوج رجل إلا في هذه الدار ...

وقام بامر مكة بعد قصي ابنه عبد الدار ، وقد سلمه قصي امرها في حياته لما ضعف وكبر ، سلم اليه مفتاح البيت كما اعطاه السقاية واللواء والرفادة ، وكانت الرفادة قسطاً تخرجه قريش كل عام من اموالها فتدفعه الى قصي ليصنع منه في موسم الحج طعاماً لفقراء الحجاج ..

وكان عبد مناف ابن قصي اعظم من شقيقه شرفاً ومكانة ، فلما مات الاخوان ، اقتسم ابناؤهما مصالح مكة ، فاخذ بنو عبد مناف السقاية والرفادة ، وبقيت الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار حتى جاء الاسلام ...

فلما كان عهد هاشم بن عبد مناف بن قصي اكثر من اطعام الحجاج واتصل بره باهل مكة انفسهم ، وهو الذي سن رحلتي الشتاء والصيف ،

رحلة الشتاء الى اليمن ورحلة الصيف الى الشام، وازدهرت مكة في ايامه، وعقد معاهدات امن وسلام مع الامبراطورية الرومانية وامراء غسان وحصل من الامبراطورية على السماح لقريش بان تجوب الشام في امن وطمأنينة، وفعل عبد شمس مثله مع النجاشي، كما عقد نوفل والمطلب، وكلهم من احفاد قصي معاهدات مع فارس ومع بني حمير في اليمن ..

وكذلك ازداد شأن مكة، وعظم سلطانها تجارة وسياسة، ولما مات هاشم خلفه اخوه عبد المطلب في مناصبه، وفي عهده صار حفر بئر زمزم التي طمرت قديماً واخرج منها غزالتا المذهب واسياف مضاض الجرهمي، ومن ابناء عبد المطلب عبدالله والد محمد بن عبدالله[1] ..

مكة وكعبتها

والمصادر التاريخية التي بين ايدينا تحدثنا عن بطون قريش التي كانت مؤلفة من هاشم، وامية، ومخزوم، وعدي، وسهم، ونوفل، وزهره واسد، وتميم وغيرهم وكانوا يسكنون وسط المدينة، حول بئر زمزم والكعبه.

والكعبة بيت صغير مربع الشكل يحيط به بناء مكشوف، وهي الى ذلك رمز لمجد القبائل العربية، فقد كان لكل قبيلة فيها صنمها وكان تمثال «هبل» صنم قريش، وهو من العقيق اكثر تقديراً واحتراماً من الاصنام الاخرى.

وخلف هذه المنطقة التي كانت مخصصة لنبلاء قريش، كان يسكن الاجانب، والعبيد والبدو من الاعراب، واحلاف قريش، ولم تشتهر مكة الشهرة الطائلة التي نعرفها عنها، الا بعد سقوط الدولة الحميرية في

(١) راجع كتابنا الحضارة العربية الاموية في تفصيل هذا البحث.

اليمن [1] ، وقد ساعدها مركزها العجيب الذي كان وسطاً بين اليمن وبين افريقيا وسورية ، والواقع على طريق الطرق التجارية الكبرى على الظهور والشهرة ، كما ان قيامها بالقرب من اسواق العرب الشهيرة كعكاظ وغيره ، كان مفيداً لها ، والى جانب هذا المركز التجاري البديع كانت قريش تنعم بذكاء وحلم ودهاء ظهرت آثارها بعد الاسلام ، وكان من آثارها قبله ان سيطرت قريش روحياً على كثير من القبائل العربيـــة القريبة منها والبعيدة عنها ... حتى ضرب المثل بحكماء قريش [2] ، ونبل رأيهم [3] ، وحتى قال الزهري عن القرشي بـ « ان له مثل قوة الرجل من غير قريش » ، واشتهروا كذلك بالدهاء ، وانهم يطلبون الامر الذي لا ينال فينالونه ، ومثل هذه الصفات الرائعة في قريش تفسر لنا كما يقول نولدكه : ظهور هذه الشخصيات البارعة منها بعد الاسلام ، في الادارة والقيادة والحكم ...

الحكومة في مكة

ولم يكن في مكة سلطة رئيسية ، وانما كانت بلداً كغيرها من البلاد التي سيطرت عليه المصالح التجارية والمالية دون غيرها ...

فأخذ يحكمها اصحـــاب الاموال وكبار التجار فيهـــا ، بحيث يصح ان يقال عن مكة انهـــا كانت جمهورية تجارية ، استطاعت ان تؤمن الحرية لسكانها بأقل ما يمكن من المظاهر الحكومية . ولما كانت قريش قبيلة تجارية ، فقد رأت من حسن السياسة ولباقة التصرف ، ان

---

(١) ولهوزون .

(٢) المقدسي ... الانساب ...

(٣) مسند حنبل .

تجعل جزءاً من الارض المجـــاورة لها محترماً مقدساً ، وتجعله حراماً لا يحصل فيه القتال ، وقد اخذوا على عاتقهم حمايته والمدافعـــة عنه ، فاطمأنوا عندئذ الى انهم في امن وسلام من عدوان القبائل عليهم ، ونشوب المعـارك في جوارهم ، وزاد في مجد قريش انها في مكة ، وان الكعبة في مكة ايضاً ...

ومن المفروض انه كان في مكة شيء من النظام الحكومي بصرف النظر عن خطره وضعفه ، وانه كان فيها دائرة تعني بتحصيل الضرائب من الاغراب الذين يقصدونها للتجـارة والسكنى ، وان كانت المصادر التي بين ايدينا لا تتحدث عن هذا بكثير ولا قليل .

وليس يبعد انها كانت تنعم بنظام بلدي ... ولكننا لا نستطيع وصفه ولا التبسط في شكله ، لأننا في دراستنا للحالة في مكة قبـــل الاسلام نستشعر بنظام ، ونقع على ترتيب عجيب ، فاذا حاولنا بحثه ووصفه لم نوفق الى شيء ، وقد اشار الى هذه الظاهرة اكثر المستشرقين ، ونحن نعلم مثلاً انه كان هناك مناد في مكة يعلن لاهلهـــا ما يقع من الاحداث الجديدة والخطيرة بين آونة واخرى ، واما صلاحيات هـذا المنادي وسلطته ، وممن كان يستمدهـا ، فان معلوماتنا عن ذلك تكاد تكون معدومة ، ولكن المفروض في وجوده ان تكون هناك سلطة ، وهذه السلطة رأينا مظاهرها يوم اتفق اهل مكة على مقاطعة بني هاشم نكاية بالدعوة الاسلامية ، ويوم اتفقوا بعد ذلك على قتل رسول الله ، فهاجر الى المدينة ..

ويحدثنا الزبير بن بكار في كتابه «نسب قريش» وهو لا يزال مخطوطاً لم يطبع حتى اليوم ، ويرجع تاريخه الى اوائل القرن الثاني الهجري ، بانه كان في مكة ما لا يقل عن اثني عشر منصباً توزعها زعماء مكة وكبّارها

ومن المؤكد انها كانت خفيفة الخطر لا شأن لها ..

واما الازرقي في تاريخ مكة ، فلا يذكر لنا اثني عشر منصباً ، انما يقول : « امور مكة الستة » ولعلها الرئيسية ... ومن هذه المناصب سقاية بئر زمزم ، ويظهر ان هذه السقاية لم تكن مجانية ، وكان المكيون يتقاضون عليها اجراً ، كما كان يفعل التدمريون قبلهم في مثل هذه الحالة ، وكانت هذه المناصب الفخرية الشريفة وراثية يتوارثها الولد عن والده والشقيق عن شقيقه ، وهي ظاهرة عجيبة في هذه الحكومة الديموقراطية الجمهورية ...

وكانت المناصب الرئيسية : رئاسة دار الندوة حيث تتشاور قريش ، وامارة اللواء ، فلا تعقد راية لحرب الا بأمر صاحب اللواء ، وحماية الكعبة وسدانتها ، او خدمتها ، وسقاية الحاج ورفادته ، وكانوا يملأون للحجاج احواضاً من الماء يحلونها بشيء من التمر والزبيب ، واما الرفادة فهي طعام كان يصنع للحجاج على سبيل الضيافة ، وقد قام بهذه الضيافة بعد قصي ابنه عبد مناف ، فابنه هاشم ، فابنه عبد المطلب ، ثم ابنه ابو طالب ، ثم اخوه العباس .

وكان من هذه المناصب ، القبة ، والاعنة ، والسفارة والازلام ، وغير ذلك مما لا نجد له وصفاً ، ولا اثراً في الشعر العربي القديم ، والآثار التي تحدرت الينا من ذلك العهد ، ومما يلفت النظر ما يوصف به ابو طالب عم الرسول ، من انه كان يقوم باطعام الحجاج في الموسم [1] وابو طالب كما نعلم كان فقيراً لا يستطيع اعالة عائلته ، فكيف باعالة هذه الجموع الغفيرة من الناس ؟ الا ان يكون مكلفاً بالتوزيع ، على ان تقدم مكة المال لهذه الغاية ، وهذا هو الارجح ...

« ١ » الازرقي .

ومثل هذا يقال في مسألة القبة والاعنة ، فانها على ما يظهر لنا لم تكن مما يتعلق بالفن العسكري في كثير ولا قليل ، وكان صاحبها خالد بن الوليد ، وليس هذا مما يقلل من شأنه وخطره ، والقبة على ما نعلم لم تكن غير هذه الستائر التي توضع فوق جمل يحمل الاصنام من مكان الى آخر ، على ان يمسك بعنانه شريف من اشرافها .

واما الحكومة القرشية فكانت ديموقراطية رحبة الصدر ، يشرف عليها زعماء عديدون ، والمصادر التاريخية تنعت اباسفيان بانه كان شيخ قريش وكبيرها ، وفي الوقت نفسه نسمع نسيبه عتبة بن ربيعة يسمى « كبير قريش وسيدها والمطاع فيها » [1] ، كما نجد وصفاً آخر له ، فيقولون عنه « سيد الناس ، وسيد العشرة » . واما اليعقوبي فيقول ان هاشماً قام بامر مكة ، ولكن الحقيقة ان كل بطن في مكة كان مستقلاً عن البطن الآخر ، وان المركزية فيها كانت معدومة ، ولا ادل على ذلك من موقف ابي جهل وهو من زعماء مكة لما خرج من مكة في قوة من اهلها لحماية العير التي حاول ان يعترضها رسول الله قبيل معركة بدر ، فانه لما افلتت العير ونجت ، ارسل اليه ابو سفيان يطلب منه العودة الى مكة ، فأبى إلا ان يحارب محمداً والمسلمين ، فكانت معركة بدر التي غلب فيها المسلمون المشركين ... وهذا دليل صارخ على ان الاستقلال الفردي كان يعم مكة ، ويسيطر على حياتها الاجتماعية والسياسية ..

واما ابو سفيان ، فكان صراف مكة وتاجرها الاكبر كما يظهر ، وفي السيرة انه كان رجلاً حليماً ذكياً محبـــاً لوطنه وبلده ... ويقول المقدسي عنه « انه كان ذا رأي وحكم ودهاء .. »

ومن المفروض ان الزعامة السياسية العليا كانت لآبي جهل في مكة

« ١ » الواقدي .

قبيل الاسلام ، ولولا ذلك ما تمكن من حمل المكيين على محاربة رسول الله في معركة بدر ، ولما مات ابو جهل في بدر تزعم مكة بعده ابو سفيان الذي كان قبل ذلك تاجراً كبيراً ، يسيطر على الحياة الاقتصادية والمالية في مكة ، ويؤيد ذلك اننا لا نسمع في عهد رسول الله وقبل فتح مكة غير اسم ابي سفيان يردد في كل غزوة وكل اتفاق وكل خلاف يقع بين رسول الله والمكيين .

واما السلطة الفعلية في مكة ، فكانت بيد الملأ من قريش الذين كانوا يجتمعون في دار الندوة ، والملأ كان مؤلفاً من زعماء البطون وكبار القوم ، وكان هذا المجلس لا يجتمع إلا في النوائب ، وفي الحالات الاستثنائية . ويحدثنا الواقدي : ان العير التي صار انقاذها من المسلمين قبيل بدر ، ظلت موقوفة امام دار الندوة لتُجهز بها حملة الاخذ بالثأر التي وقعت في احد ...

نتائج عام الفيل

ولقد تعرضت مكة في السنة التي رأى فيها النور محمد بن عبد الله نبي العرب لخطر عظيم فقد حاول ابرهة الحبشي اقتحامها وتدمير كعبتها ، ومرد ذلك ما بلغته مكة من شأن كبير ببيتها هذا وحج العرب له وتقاطر التجار اليه ، مما كان يزيد في ثروة القرشيين ويوفر لهم الرفاء والغنى ، بحيث اخذت بعض الامم تفكر في انشاء بيت على غرار البيت في مكة ، لعلها تصرف العرب عنه ، فاقام الغساسنة بيتاً في مواطنهم ، واقام ابرهة الحبشي بيتاً في اليمن ، فلم يغن ذلك العرب عن بيت مكة ، فاغضب ذلك ابرهة واحقده وشخص الى مكة على رأس جيش من قومه وهو على فيل عظيم ...

ولما وصل ابرهة الى حول مكة ، تفشى داء الجدري في جيشه واخذ يفتك به ، واصابت العدوى ابرهة نفسه فاخذه الروع وامر قومه بالعودة الى اليمن ، وبلغ ابرهة صنعاء وقد تأثر جسمه من المرض فلم يعش الا قليلاً ثم مات بعدها ، وبذلك ارّخ اهل مكة عام الفيل هذا ، وقدسه القرآن بذكره . .

وكان من اثر هذا الحادث ان ازداد العرب تعظيماً لبيت مكة ، وان ازداد اهل مكة مرحاً وفخراً بمدينتهم ، وعادت الحياة الهانئة الوادعة الى مكة بعد هذا الحادث فاخذ اهلها يجلسون في كل صباح ومساء الى نيف وثلاثمائة صنم يقص بعضهم على بعض اخبار البادية ، وانباء التجارة ، وما يقع في الحيرة وعند الغساسنة فيما ترد به القوافل او يتناقله اهل البادية . . .

وكان من في مكة من اليهود والنصارى عدد قليل ليس لهم من الامر شيء ، وكانت منازل اهل مكة تحيط بدار الكعبة وتقترب منها او تبتعد عنها وفاقاً لما لكل اسرة من خطر وصولة ، فكان القرشيون اقربهم اليها اتصالاً ، ثم تأتي منازل القبائل التي تليها في الخطر ، ثم تلي هذه منازل العبيد . .

الاقليم في مكة والحجاز

والاقليم في مكة حار شديد والماء فيها قليل بحيث لا تصلح للزراعة الا قليلاً ، واما المدينة فاحسن حالا ، ولكنها تحتاج الى العناية والسقاية الدائمة ، واما الطائف فكانت اكثر حالاً وازهر وانضر ايضاً .

وليس في مكة على وجه التحقيق اقليم معتدل وماء وفير يحمل الناس على السكنى فيها ، ولما انشأ ابراهيم القواعد من البيت ادرك هذه الناحية الاجتماعية الخطيرة ، فدعا ربه ، ان يجعل افئدة من الناس

تهوى اليها ، لانها في الواقع كانت في واد غير ذي ذرع ، تحيط بها جبال ضيقت على اهلها ، حتى ان مشركي مكة كانوا كثيراً ما يقولون لرسول الله حين يدعوهم الى الاسلام « اطلب من ربك ان يسيّر عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا » . هذا الى ان مكة كانت في حالة دقيقة من حيث اعتمادها على غيرها في قوتها ، فهي بلد يعتمد على الخارج بكل شيء ، حتى الماء ، فانها كانت دائماً بحاجة ملحة اليه ، خصوصاً الماء العذب الذي يصلح للشرب ..

واول ما نسمع عن جلب الماء الى مكة في ايام معاوية ، فقد جلب الماء الى ارضه حول مكة ، كما اقام مشرعاً للناس وسبيلاً ... وفي عهد الوليد الاول انشأ خالد القسري حاكمها مخازن للماء يستقي منها الناس ولكنها لم تدم طويلاً بسبب قلة العناية بها ... ثم قيام الدولة العباسية التي كانت لا تفكر بالحجاز في قليل ولا كثير اذ كانت تعده مركز العلويين وهم خصومها سياسياً ...

والظاهر من بعض المصادر انه كانت تقوم هناك زراعة حول مكة قبل مائتي سنة ، او اكثر من ظهور الاسلام[1] ... واما في عهد الرسول فلم يكن هناك في مكة شجرة واحدة . ومن المؤكد ان هذا الجدب والاحتمال في الارض كانا يحملان سكان مكة على ارسال اولادهم الى البادية ينالون من خيراتها ، ويأكلون من البانها ، وينعمون باعتدال اقليمها .

وفي المصادر التاريخية الشيء الكثير عن رمضاء مكة وشدة حرها في الصيف ، وصفها الازرقي في كتابه ، وابن الفقيه في جغرافيته ، وابن بطوطة في رحلاته ، ولم تكن مكة بلداً يصلح للشتاء ، فانها على شدة

« ١ » الاغاني ..

حرها في الصيف، كانت اذا اقبل الشتاء وامطرت — والمطر فيها قليل — ارتفع المطر في ربع ساعة الى درجة مخيفة ، وقد تحدث احد المستشرقين الذين زاروا مكة سنة ١٨٨٥ انه كان في المسجد الحرام لما امطرت السماء، وبعد ربع ساعة ارتفع الماء حول الكعبة الى ما يقارب القدمين .. [١]

وتاريخ مكه قبل الاسلام وبعده كان مليئاً باخبار السيول التي كانت تحصل فيها ، فتهدم البيوت ، وتأخذ كل شيء في طريقها ، وحديث السيل شيء عادي في الجزيرة ، حتى انه كان يحسب رحمة للناس ، والعام الذي يحصل فيه سيل عظيم ، عام يقات فيه الناس ، فاذا انتهى السيل وجاء الربيع لبست الارض حلة خضراء، نعمت فيها المواشي والناس على السواء.

التجارة في مكة

والظاهر ان اهل مكة كانوا يتعاملون بالعملتين البيزانطية والفارسية ، واحياناً بالحميرية ، وكانت العملة ذهباً وفضة ، والدينار الذهبي كان يساوي في عهد عثمان بن عفان اثني عشر درهماً ، والمصادر العربية تتحدث عن تجارة اهل مكة كأمر عادي واقع . فأبو سفيان كان تاجراً ، وخديجة زوج رسول الله كانت تاجرة ، تستأجر الرجال لتجارتها ، وكان ابو سفيان يهتم بتجارة الجلود وغيره بتجارة العطور ، وكان ابو سفيان يحاول ما استطاع السيطرة على هذا الصنف واحتكاره وبيعه بالسعر الذي يوافقه ، وكان الى جانب التجار قوم يتعاطون الصيرفة ، وهم اصحاب الاموال او رؤوس الاموال الذين كانوا يجهزون التجار ، ويقدمون لهم الاموال اللازمة لتجارتهم ، مقابل شيء في الارباح او مبلغ معين على الاموال المقدمة ، وهذا ما يفعله تجار اليوم ، بحيث نستطيع القول ان الصراف

« ١ » Smouck Hurgronye : Mekka والاغاني ...

في مكة في عهد الرسول يساوق زميله في العصر الحاضر ...

وفي الواقـــدي ان النصف مليون التي صار تخصيصها للثأر من يوم « بدر » ، صار ايداعها عند ابن سفيان الذي كان من كبار تجار مكة واغنيائها .

وكان اهل مكة كلهم على الارجح يتعاطون التجارة ، ومن لم يكن عنده مال كان يستقرضه من اصحاب الاموال ، ويخصصه لمشترى بعض البضائع من الشام مثلاً ، ومتى باع بضاعته في الموسم ، دفع ديونـه الى صاحب المال واحتفظ بارباحه . وكان لاهل مكة مندوبون عند القبائل العربية المجاورة للمحافظة على اموالهم ، وترويج تجـارتهم بينهم ، وهـذا يفسر لنا كيف ان قريشاً كان لها شأنها في الجزيرة ، وكيف انها كانت تنعم بمركز ممتاز بين العرب ليس فقط لانها حامية الكعبة وما فيها من الاصنام ... بل لانها ايضاً صاحبة التجـارة والاموال في طول الجزيرة وعرضها .

وقد اشار القرآن الى الفوائد العظيمة التي كان يأخذها اصحاب الاموال في مكة مقابل مبلغ من المال يستدينه منهم صاحب الحاجة ، وكيف ان الفائدة كانت اضعافاً مضاعفة ، ومن المعلوم ان المبلغ المذكور كان يقدم مقابل رهن يقدمه المديون ، وهذا الرهن قد يكون احياناً شخصه ، حتى اذا لم يتمكن من دفع ما عليه اصبح عبداً لصاحب المـال .. [1]

ومن المؤكد عندنا ان هذه المساعدة التي كان يقدمها الصرافون واصحاب الاموال في مكة الى تجارها — وكل سكانها كانوا تجاراً — كان

« ١ » يا ايها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا اضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون : — القرآن .

لها شأنها في تعزيز سلطان البلد التجاري ، ولكن الحالة المالية عند ظهور الرسول كانت مضطربة ، فقد خسر كثير من اهل مكة اموالهم او اكثر اموالهم عند البدو وغيرهم ، الذين كانوا لا يدفعون ديونهم الا نادراً ، كما ان التجارة مع البادية كانت مضاربة غير مأمونة العواقب .. حتى اخذ كثير من تجار مكة يحتفظون باموالهم ولا يرسلونها مع القوافل مخافة ضياع القافلة او سطو البدو عليها . ولما قام رسول الله بدعوته ، ووقف اهل مكة موقفهم الصعب منه ، وغادر مكة الى المدينة ، اخذ يضرب قريشاً باعز سلاح عندهم وهو تجارتهم ، واخذ يشن على هذه التجارة الغارات قبل غزوة بدر حتى اصبحوا في مثل حصار اقتصادي لا يجرأون على التجارة والاتجار مما جعلهم يقولون كما ذكر الواقدي :

« نأكل رؤوس اموالنا ونحن في دارنا ، هذه حال ما لنا فيها بقاء .. »

وقد ذكر سترابون العرب فقال : ان العربي اما ان يكون تاجراً او سمساراً [1] ، وهذا القول يصدق على اهل مكة ، فان « الواقدي » يذكر لنا عن اهل مكة او احد اهلها قوله : « ما لنا بها بقاء وانما نزلناها على التجارة » . وكانوا يقدرون التجارة ويعظمونها ، ومن لم يكن تاجراً ، فليس عندهم بشيء ، حتى انهم في معركة بدر حملوا معهم البضائع للتجارة لان بدراً كانت سوقاً من اسواق العرب ايضاً ...

وكانت المضاربة ظاهرة تجارية شائعة في مكة ، والمضاربة ان تعطي انساناً من مالك ما يتجّر فيه على ان يكون الربح بينكما ، او يكون له سهم معلوم من الربح ، وهذا ما حصل فعلاً بين رسول الله وخديجة ، وكان الاسم الشائع لمن يتجر بمال غيره « الشريك » ، وقد اعطت خديجة رسول الله افضل ما كانت تعطي غيره من الرجال ، كما يقول ابن هشام ،

« ١ » طبقات ابن سعد .

ويظهر من قول « الطبري » ان السيدة خديجة كانت صاحبة مصرف وودائع ، وانها كانت تتجر بمالها ، او تشارك غيرها على ان تقدم هي المال اللازم ، وكان يحصل ايضاً ان يشترك اصحاب الجمال في القافلة ، او نقلة التجارة من البدو في تجاره القافلة ، بان يقدموا مبلغاً من المال لصندوقها العام المشترك ، مقابل شيء معين من الارباح ، والواقع ان اهل مكة نساءً ورجالاً كانوا تجاراً يحبون المخاطرة ، ويرضيهم جمع المال والتجارة ، وفي ذلك ما فيه من الاعتماد على النفس ، والاتصال بالناس ، من مختلف الاجناس اتصالاً وثيقاً يساعد على تفهم النفس البشرية ، والعقلية الانسانية .

مكة وقوافلها

وفي السنة الثالثة للهجرة كانت الحالة النفسية في مكة مضطربة اشدّ ما يكون الاضطراب ، لأن المسلمين ، بعد انتصار بدر ، سيطروا على طريق القوافل الى مكة ، واخذوا يشنون الغارات على هذه القوافل ، ولما كان اهل مكة يعتمدون في معاشهم على ما يردهم من الخارج ، فقد اخذوا يحسون بوطأة الحصار المضروب عليهم ، واخذوا يأكلون رؤوس اموالهم ، وقد ايقنوا ان مصير بلدهم متوقف على خروجهم من هذا المأزق الحرج سالمين منتصرين ...

والواقع ان حياة مكة كانت متوقفة على سلامة قوافلها ، ونجاح هذه القوافل في السفر منها الى الشام وغير الشام ، والقدوم من الامصار البعيدة الى مكة سالمة آمنة ، وكان ذهاب القافلة وعودتها سالمة حدثاً عظيماً في مكة يحتفل به اهلها ، ويخرجون الى لقائها ، وقد اشار القرآن الى جماعة من المسلمين من اهل مكة وذلك قبل الهجرة ، كانوا كما يظهر

يستخفهم خبر اقبال القافلة سالمة ، فيذهبون الى استقبالها مع المستقبلين ، وكان هناك جماعة غيرهم من المسلمين لا يفعلون من هذا شيئاً ، فذكرهم القرآن : « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .. »

وكان ابو سفيان ، لما تمكن من انقاذ العير ، انفذ رجلاً الى مكة يبشر اهلها بسلامة القافلة ، ودفع له عشرين ديناراً لهذا الغرض ، وهو مبلغ عظيم طبعاً ، ولكن القافلة كانت من اهم قوافل قريش ، وكان يقدر ما فيها من الاموال بمليون درهم على الارجح ، وان كان بعض المؤرخين يقدرها بخمسين الف دينار ... وكانت مؤلفة من الف جمل تحمل كمية وافرة من البضائع والاغذية والاشربة ..

وكان من المفروض على القافلة ان تدفع مبلغاً معيناً من المال للبدو الذين تمرّ بارضهم مقابل السماح لرجالها وجمالها بالشرب من العيون الخاصة بهم ، كما كان عليها ان تدفع مبلغاً آخر مقابل خفارتها في الطريق ، ومثل ذلك عند وصولها الى ارض اجنبية ، وكان الخفير من الامور الضرورية لوصول القافلة سالمة الى مستقرها ، كما ان الدليل كان مثله شأناً وخطراً ، وكان عدد جمال القافلة احياناً يبلغ الالفين والخمسماية جمل [1] ، وعدد رجالها من الماية الى الثلاثماية شخص [2] .

ومما يصار الى ذكره بهذه المناسبة ان اهل مكة قد اشتركوا في القافلة التي صار ارسالها الى الشام قبيل بدر اشتراكاً عاماً كما يظهر ، وكان بعض اهل مكة قد اشترك فيها بدينار او بنصف دينار ، واشترك فيها اصحاب الاموال بمبالغ طائلة ، وكانوا يربحون في تجارتهم مايةبالماية وكان لبني مخزوم في هذه القافلة مائتي جمل ، واشتركوا فيها بما لا يقل

« ١ » الطبري والواقدي وابن سعد في طبقاته .

« ٢ » السيرة والواقدي .

عن اربعة الى خمسة آلاف دينار ، واما الامويون فقد اشتركوا باربعين الف دينار من الخمسين الف دينار مجموع رأس مال القافلة ، وهذا يفسر لنا سفر ابي سفيان بنفسه مع القافلة، ومن الغريب ان احداً من الهاشميين لا يذكر اسمه كمشترك في القافلة، وقد يكون سبب ذلك ان اشتراكهم كان زهيداً ، او ان علاقاتهم مع محمد كانت من الاسباب التي منعتهم من الاتجار مع اعدائه ...

وكانت الجلود والذهب والعطور وغيرها من اهمّ البضائع المستوردة، حيث يصار الى صنعها واصلاحها في الطائف ، ولما حاولت قريش ارسال الهدايا الى نجاشي الحبشة ، ارسلت له بعض الجلود الرقيقة من جلود الحيوانات[1] . وكان ابو سفيان في مكة يحتفظ بكميات كبيرة منها في مخازنه العديدة ، ولما ذهب القرشيون الى معركة بدر حملوا معهم كمية من الجلود المذكورة[2] ... ويظهر انها كانت تستعمل بمثابة الالبسة الواقية من البرد ، وكان الزبيب ايضاً من المشروبات الرائجة عند المكيين كما يذكر ابن سعد في طبقاته ، والظاهر انهم كانوا يستهلكون منه كمية وافرة تقوم مقام ندرة الماء عندهم .

وارض الحجاز فيها آثار تدل على انها تنعم بكمية من الاحجار الكريمة خصوصاً في منازل بني سليم ، ولذلك كان المكيون يتكلفون صداقة هذه القبيلة للاستفادة من ذهبها ومعادنها ، وكان البدو يحفرون الارض للبحث عن الذهب ويبيعونه الى اليهود في فدك وخيبر والمدينة .

وكان للمكيين رحلتان في السنة ، رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، وكانت رحلة الصيف الى اليمن تحمل ما فيها من العطور وغيرها التي كانت

« ١ » الطبري .

« ٢ » الواقدي .

تأتيها من الهند ، وافريقيا . فاذا جاء الشتاء ذهبت القافلة المكية الى سورية وفلسطين ومصر ، تحمل معها العطور والبخور والبهارات وغيرها التي صار جلبها من اليمن . وكان الرسول يحب العطور ويفرك جسده بها ، وكانت رائحة العطر التي تنبعث منه تدل على الطريق الذي ذهب فيه .

وكان المكيون يجلبون من اليمن محصولات الفرس والهند والشرق الاقصى التي كان يصار الى خزنها في مرافيء اليمن ، وكان حرير الصين مشهوراً ، واثواب اليمن وعدن مثله شهرة ، واما افريقيا فاشتهرت بالعبيد والعاج او انياب الفيلة . ومن هؤلاء العبيد الذين كان يحملهم تجار مكة من افريقيا الى بلدهم ، كان يتألف جيش الاحابيش الذي ذكرته السيرة غير مرة .

واما من مصر وسورية ، فان المكيين كانوا يستجلبون البضائع الكمالية الرفيعة ، كالثياب التي كانت تصنع من الحرير والقطن معاً فتكون خفيفة رقيقة ، واما من سورية فكانوا يجلبون الارجوان ، وهو قماش مصنوع من شيء من الحرير على اطرافه ، ومع شدة المراقبة البيزانطية على الحدود ، فان المكيين كانوا يجلبون السلاح من بصري ، وقد وجد رسول الله مخزناً مليئاً بالسلاح في مكة بعد الفتح استفاد منه في غزوة حنين .

وكان المكيون يجلبون الحبوب والزيت من شرقي الاردن وحوران[1] ، وكانوا يقولون عن سورية انها « بلد الخمر والخمير والديباج والحرير »[2] . وفي هذه الايام كانت الرحلة شاقة صعبة وطويلة ، وكانوا يتعاقبون الابل الاثنين والثلاثة والاربعة معاً خصوصاً اذا كانت الابل تحمل البضائع في طريقها الى مكة ...

« ١ » ابن حجر .

« ٢ » الاغاني والازرقي ...

والواقع ان ما قدمناه عن تجارة مكة يعطي القارىء صورة متواضعة صادقة عن عظمة هذه المدينة المالية في عهد الرسول . فاذا كانت قافلة بدر تعد خمسين الف دينار ، والدينار في الماضي ومنذ الف وثلاثماية سنة يوازي سعره الحاضر اضعافاً مضاعفة ، امكننا ان نقول ان هذا المبلغ يعتبر ثروة عظيمة ؛ كما انه لا يجب ان يغرب عن اذهاننا انه كانت هناك قوافل صغيرة تذهب من مكة في هذه الاثناء ايضاً الى البلاد القريبة منها ، وكان هناك مخازن في مكة فيها كميات وفيرة من الاقمشة والبضائع وغيرها ، مما يدل على ان مكة كانت تنعم بثروة عظيمة لا يستهان بها .

واما المدينة فكانت فقيرة بالنسبة الى مكة ، وكان جل اعتماد اهلها على موسم التمر ، وما يقومون بزراعته في ارضهم ، وقد تركوا لليهود السيطرة على السوق التجارية فيها بكل ما في الكلمة من معنى . فلما نزلها المهاجرون جلبوا معهم اليها بعض النشاط التجاري ، فعادت للانصار اسواقهم بعد ان كانوا يكتفون بسوق بني قينقاع اليهودي ، وبعد وقت قصير اصبح بعض المهاجرين من الاغنياء ، خصوصاً عبد الرحمن بن عوف الذي اصبح من اصحاب الملايين بعد ان جاء المدينة لا يملك شيئاً ، وهذا كله يدل على مقدرة القرشيين التجارية والمالية ...

ومن المؤكد ان ابن جدعان كان صاحب ثروة واسعة في مكة حتى شبهه احد الشعراء بقيصر [1] ، وكذلك كان حال ابن أخيه وابي سفيان وكانا من اصحاب الحصة الكبرى في قافلة بدر ، لأن الثلاثين الف دينار التي وضعها ابو احيه في قافلة بدر لا تمثل كل ثروته طبعاً ، وانما تمثل

« ١ » معجم البلدان .

بعضها [1] ... وكان اولاده اغنى شباب مكة [2] ، واما ابو سفيان فلم يشترك بالقافلة باكثر من عشرة آلاف دينار ولكن المعروف انه كانت له اموال كثيرة كابي احيه في الطائف ومكة والمدينة وعند البدو ...

وكان الوليد بن المغيرة غنياً جداً ايضاً [3] ، ومثله عبدالله والد عمر بن ابي ربيعة الشاعر وكانا من بني مخزوم ، ومما يدل على عظم ثروة والد عمر بن ابي ربيعة انه ساعد المكيين بخمسماية دينار لتجهيز حملة بدر ، ثم دفع اثني عشر الف درهم فدية ثلاثة من انسبائه ، وفي الوقت نفسه ارسل قافلة تمكن المسلمين من الاستيلاء عليها [4] . ولما دخل الرسول مكة ساعد عبدالله هذا المسلمين باربعين الف درهم [5] وكانت ثروة عبدالله هذا من الحرير ، واما ابن جدعان فقد جمع ثروته من تجارة الرقيق .

واما صفوان بن امية فكان غنياً عظيماً ايضاً ، وقد جمع ثروته من تجارة السلاح وسبائك الذهب ، وقد استطاع المسلمون الاستيلاء على قافلتين من قوافله ، ولما اسلم ساعد الرسول باربعين الف درهم هو وصديق آخر له قبيل غزوة حنين [6] ، ومثله عثمان بن عفان الذي اشترى من احد يهود المدينة بئر رومه باربعين الف درهم اهداها للمسلمين ، كما ساعد الرسول في تبوك بمبلغ عظيم من المال ..

هؤلاء يمكن عدهم من اصحاب الملايين في ذلك الزمن السالف ، ثم تأتي بعدهم طبقة اقل منهم ثروة ، مثل عبد الرحمن بن عوف الذي كان

---

١ » الواقدي .
٢ » ابن قتيبة في المعارف .
٣ » الاغاني .
٤ » ابن سعد في طبقاته — والواقدي .
٥ » ابن حنبل : مسند .
٦ » ابن حنبل ... والطبري .

يملك ثمانية آلاف دينار ، كما يقول الطبري ، ومثله غيره، واما الهاشميون فكانوا من الفقراء الا العباس عم النبي فانه كان صاحب ثروة حسنة [1] .

والواقع ان معركة بدر قد كلفت مكة خسارة عظيمة في المال والرجال ... وتقدر المبالغ التي دفعتها مكة لافتداء اسراها بما لا يقل عن مائتي الف درهم ، والمصادر تقول ان العباس دفع عن نفسه فدية الف دينار ، وعشرين اوقية من الذهب [2] ... كما تخلى اصحاب الاموال في مكة عن ارباحهم من قافلة بدر وتقدر هذه الارباح بنصف مليون درهم ... لتخصص لحملة الاخذ بالثأر التي وقعت في « احد » والتي فشل فيها المسلمون ، وانتصر المكيون ... وكان هذا آخر انتصار لهم ...

ومما يدل على اثراء اهل مكة ان رسول الله قد اقترض من بعض اغنيائهم بعض الاموال لتجهيز حملاته العسكرية ، ثم ردها اليهم بعد ذلك ، وذكر المقريزي في كتابه جملة صالحة من اصحاب هذه الاموال، كما ذكر مقدارها ، واذا هي تقارب المائتي الف درهم ...

وقد صار هذا القرض طبعاً بعد ان استولى رسول الله على مكة وبعد ان اسلم جميع اهلها ...

---

١) يقول الطبري : انه كان ذا مال كثير ، ويؤيد ذلك الواحدي في كتابه اسباب النزول ...

٢) طبقات ابن سعد .

- ٥ -

الحالة الاجتماعية في العالم

عند ظهور الاسلام

كانت الحياة الاجتماعية عند ظهور الاسلام شيئاً مؤسفاً حقاً ، فقد كان العامة لا ينعمون بحقوق سياسية ولا اجتماعية ، لان هذا كان من حق الاغنياء والاقوياء والاشراف ، واذا كان هناك قانون فقد كان لمصلحة جماعة دون اخرى ، وكان دائماً في مصلحة الاقوياء والاغنياء والاشراف..

ففي فارس كان الكهنة واصحاب الاملاك والاراضي — الدهاقين — ينعمون بكل خيرات الارض ، وخيرات الحكم والسلطان ، وكان الفقراء والعامة عبارة عن مواشي لا تصلح الا لخدمة الاقوياء ورجال الدين.

وكذلك كان الحال في الامبراطورية الرومانية حيث كان يعيش العامة في حالة مخيفة من الفقر والذل ، تستغلهم طبقات ثلاث : الاغنياء من اصحاب الاراضي الواسعة ، والحكام ، ورجال الدين ..

وهذه الحالة نفسها كانت في اوروبا قائمة مستقرة ثابتة الى اعوام خلت ، والذين درسوا التاريخ الاوروبي المعاصر يجدون في تضاعيفه تأييد ما نقوله ، والى مدة متأخرة من الزمن كانت اكبر دولة استعمارية في العالم تعتبر بعض ابناء المستعمرات عبيداً اذل من الحيوانات ، وأقل قيمة من الكلاب .

وكان رجال الدين دائماً وابداً اكبر مساعد لمختلف الحكومات المستعمرة على استعمارها هذا ، والثورة الافرنسية كانت ثورة فاضت بها

قلوب الطبقات الشعبية ضد جور رجال البلاط ورجال الدين والنبلاء من الاغنياء وغيرهم ...

الاسلام

واما في الاسلام فليس هناك شيء من هذا الاستعباد للطبقات ، والدعوة الاسلامية كانت دعوة انسانية عامة لتحرير الانسان وتعزيز شأنه ورفع مستواه ، وتاريخ الاسلام في عهد الفتوح يصح ان يكتب باحرف من ذهب ، لانه عامل سكان البلاد المغلوبة معاملة لا مثيل لها في ذلك العهد الاسود القاتم ، الذي كان من شأن كل دولة غالبة فيه ، ان تحرق الارض ، وتدمر الزرع وتقتل الاطفال والنساء والشيوخ ، من ابناء الدولة المغلوبة ، كما فعل الفرس لما استولوا على الامصار الرومانية ، وكما فعل الرومان لما استولوا على الامصار الفارسية وذلك قبيل ظهور الاسلام ، ولقد ظلت هذه الجرائم الشنيعة امراً واقعاً حتى بعد ظهور الاسلام وتقدم الحضارة ، وليس بعيداً عنا ما فعله الاسبان لما استعادوا اسبانيا من العرب ، وما فعله غيرهم في هذه الاعوام التي تقطعت قبل عهدنا الحاضر .

ولكن هذه السياسة البعيدة عن الانسانية ، لم يتكافها الاسلام في فتوحه ، ولا اجراها في زحوفه ، ولا جعلها امراً مقرراً في حروبه ، فهو من هذه الناحية يقف فريداً لا مثيل لعدله وانسانيته ...

والى هذا وغيره من الاسباب يعزو المؤرخون تقدم الاسلام ، ونجاحه العجيب بحيث تمكن في عشرين سنة تقطعت بعد وفاة سيد العرب من الاستيلاء على الامبراطورية الفارسية كلها ، ومن التغلب على الامبراطورية الرومانية والظفر باخصب امصارها في سورية وفلسطين ومصر واطراف افريقية .

ولسنا هنا في صدد التأريخ لمحمد بن عبد الله ، فان لهذا البحث مكاناً

آخر من مؤلفاتنا ، ولكننا نريد ان نقول ان سيد العرب لما قام يدعو قومه الى الاسلام والى الاتحاد ، لم يتقبل دعوته إلا الاقل من الناس ، ولم يؤمن برسالته الا المساكين والفقراء وبعض ذوي الاخلاق من قومه ، فراح يتألف قومه تارة بالرحمة واخرى بالشدة حتى استقام له ما اراده ، وحتى استطاع بعد سنوات قليلة من ظهوره ، ان ينشيء مجتمعاً عربياً متماسكاً موحداً حراً ، يعرف كيف يضبط نفسه وعواطفه ، ويعرف في الوقت نفسه كيف يدافع عن حرياته ومثله العليا بحرارة لا مثيل لها .

وشيء آخر ايضاً ، وهو انه في عهد محمد بن عبد الله لم تكن هناك واجبات اجتماعية وانسانية مقررة معروفة عامة ، فقد كانت العادة المتبعة حين يظفر شعب بآخر ، ان يبيده بالسيف ، وان يأخذ للسبي والعبودية من تبقى من الاولاد والنساء والشيوخ ، والرومان انفسهم الذي صرفوا قروناً عديدة حتى تمكنوا من وضع نظامهم السياسي والاجتماعي الذي قام بوضعه رجال كانوا في كثير من الاحيان من الساميين الفينيقيين والسوريين والقرطاجنيين ، لم يفطنوا الى الروح الانسانية التي يجب ان يكون لها شأنها في العلاقات التي تربط الامم المختلفة بعضها الى بعض ، فحملوا السيف لغير ما سبب جوهري إلا استعباد امم وجماعات رفضت استعبادهم وسلطانهم ، وفي كثير من الاحايين كانت المعاهدات التي تعقدها (رومه) مع الامم الاخرى عبارة عن قصاصات من الورق ، يسهل تمزيقها عند اللزوم ، وعند ما تقضي بذلك المصلحة ، واما حربات الشعوب فلم تكن شيئاً يؤبه له ، او يعتدّ به .

اما الروح الاسلامية العربية فقد كانت على خلاف ذلك ، فقد نادى محمد بالمساواة بين كل طبقات المجتمع الانساني ، وقدم دينه الجديد للجميع ، ولكنه لم يفرضه على احد بحال من الاحوال ، فمن تقبل الاسلام اصبح

مساوياً لاي مسلم آخر مهما عظم شأنه ، وعلا سلطانه ، كما انه رفع مستوى الجماعات المغلوبة الى حالة لم تكن تعهدها في فاتح آخر قبل ذلك العهد ، وترك المغلوبين حرية الاعتقاد والحرية الاجتماعية ، مقابل مبلغ زهيد من المال يدفعه المغلوب لخزانة الدولة ، مساعدة لها في الدفاع عنه والمحافظة عليه .

ومن المعلوم ان المذاهب السياسية والمذاهب الدينية تدعو الى الحرية ، وتنادي بالمساواة والاخاء ، ما دامت ضعيفة قليلة الانصار والاعوان ، تعمل للظهور والغلبة والفوز ، حتى اذا بلغت امانيها ، انقلبت الى عكس ما كانت تنادي به وتدعو اليه ...

واما الاسلام فقد اظهر من رحابة الصدر مع الامم المغلوبة ما لا مثيل له كما قدمنا ، ولا ادلّ على ذلك من موقف محمد نفسه من مشركي مكة ، يوم دخلها فاتحاً ، بعد ان حاربوه ، وانكروه ، واذوا اصحابه ، وسلبوهم اموالهم ومنازلهم ، فانه عفا عنهم جميعاً ، وترك لهم ما سلبوه من المنازل والاموال والعقار ... ولكنه فرض عليهم تحرير عبيدهم ، وسوّى بينهم ، وهي ظاهرة كما قدمنا لا مثيل لها في التاريخ ، لان احداً من الامم المغلوبة لم يدخل بلداً من البلاد العاصية فاتحاً ، بعد ان آذاه سكانه وحاربوه وقاتلوه ، حتى اذا غلبهم على امرهم ، واستولى على بلدهم ، اعتقهم ، وحررهم وتركهم وشأنهم ، ولم يحاسبهم على اموال لانصاره نهبوها ، ومنازل استولوا عليها ، بل يزيد ندى فلا يعرض الا لنفر قليل منهم اساءوا الى الاسلام اساءة عظيمة ، واكثر هؤلاء وهم لا يتجاوزون عدد اصابع اليد الواحدة صار العفو عنهم بعد ذلك كما انه ليس هناك في العالم القديم شخص لم يخش دينه العلم ، ولم يضطهد العلماء ، غير محمد بن عبدالله ، الذي قال : فضل العلم خير من فضل العبادة ، واطلبوا العلم ولو في الصين ...

— ٦ —

هل كان محمد اميّاً ؟

مصادر ونصوص جديدة

كان اول من عرض لهذا البحث ، وروّج له واعلنه والف فيه ابو الوليد الباجي من علماء الاندلس في القرن السادس الهجري ، فقد ذهب يقول ان النبي عليه السلام كتب بيده وفاقاً للحديث المذكور في البخاري ، فأنكر عليه القوم في عهده قوله هذا ، ولكنه قهرهم وغلبهم بالحجة والبرهان .

ومن المؤكد ان هذا البحث من الطرافة بالمكان الارفع ، وانه جدير بالدرس والتحقيق وبحث الاسانيد المختلفة التي تؤيد او تنفي كون رسول الله كان اميّاً ام لا ، ومن اهمّ هذه الاسانيد القرآن ، والحديث ، والسيرة . .

ولقد وصف القرآن الرسول بانه أمي في آيتين صريحتين (١٥٧ و١٥٨) وردتا تباعاً في سورة الاعراف . . .

فقال في الاولى : « الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه عندهم مكتوباً في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر الخ . . . »

وقال في الثانية : « قل يا ايها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً ، الذي له ملك السموات والارض لا اله الا هو ، يحيي ويميت ، فآمنوا بالله وبرسوله النبي الامي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون » . . .

ولم يرد في القرآن غير هاتين الآيتين بهذه الصراحة عن اميته (١) .

والسؤال الذي يخطر على بال الكاتب هو ما تعني كلمة « امي » على وجه التحقيق ، لانه من المعلوم ان هذه الكلمة في العصر الحاضر ، تعني الرجل الذي لا يعرف القراءة ولا الكتابة . . .

وهذا ما كان معناها عند العرب في عصر الرسول ما في ذلك شك ، وقد صح عن الرسول انه وصف قومه العرب فقال : « إنا امة امية لا نحسب ولا نكتب ... »

ويقول محمد بن جرير الطبري المتوفي سنة (٣١٠) في تفسيره المشهور : « وارى انه قيل للامي « امي » نسبة له — بانه لا يكتب — الى أمه لان الكتابة كانت في الرجال دون النساء .. »

وما دام الأمر كذلك فما هو تاريخ نزول الآيتين، لان هناك نصوصاً اخرى تعين الوقت الذي كتب فيه الرسول ، بعد ان كان لا يحسن الكتابة ..

ومن المعلوم ان سورة الاعراف من السور المكية ورقمها ٣٩، وفاقاً لترتيب تاريخ النزول من اصل ٨٦ سورة مكية ، مما يحمل على الظن بان نزول هذه السورة وقع حوالي ٦١٦ ميلادية [1] ... ومعنى هذا ان رسول الله قد بلغ سبعاً واربعين سنة من عمره وهو امي بنص القرآن ...

ومعنى هذا ايضاً ان رسول الله تعلم الكتابة بعد هذا العهد فمتى كان ذلك؟

اورد البخاري في صحيحه خبراً في ثلاث روايات يستفاد منه ان النبي كتب بيده يوم عقد معاهدة الحديبية مع مندوب قريش سهيل بن عمرو سنة ست للهجرة (٦٢٨ م) ...

ولكي ندرس هذه الروايات الثلاث نثبت نصوصها بالحرف ....:

الرواية الاولى

حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا شعبه عن ابي اسحق قال : سمعت البراء بن عازب رضي الله عنهما قال : لما صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم اهل الحديبية ، كتب علي ابن طالب رضوان الله عليه بينهم كتاباً ،

« ١ » تاريخ القرآن ج ١ ص ٥٨ ، نولدكه .

فكتب «محمد رسول الله»، فقال المشركون: لا تكتب «محمد رسول الله»، لو كنت رسولاً لم نقاتلك. فقال لعلي: امحه. قال علي: «ما انا بالذي امحاه» فمحاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصالحهم على ان يدخل هو واصحابه ثلاثة ايام» الخ ... (البخاري ج ٣ ص ١٥٣ — ١٥٤).

الرواية الثانية

حدثنا عبيد الله بن موسى عن اسرائيل عن ابي اسحق عن البراء رضي الله عنه، قال: «لما اعتمر النبي صلى الله عليه وسلم في ذي القعدة، فأبى اهل مكة ان يدعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على ان يقيم بها ثلاثة ايام. فلما كتبوا الكتاب كتبوا «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ...» فقالوا: لا نقر بها فلو نعلم انك رسول الله ما منعناك، لكن انت محمد بن عبدالله، قال: انا رسول الله وانا محمد بن عبد الله ثم قال لعلي: امح رسول الله، قال لا والله لا امحوك ابداً ... فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب، فكتب هذا ما قاضى محمد بن عبد الله لا يدخل مكة سلاح الا في القراب، وان لا يخرج من اهلها باحد ان اراد ان يتبعه، وان لا يمنع احداً من اصحابه ان اراد ان يقيم بها (البخاري ج ٣ ص ١٥٤)

الرواية الثالثة

حدثنا عبدالله بن موسى عن اسرائيل عن ابي اسحق عن البراء رضي الله عنه قال: «لما اعتمر النبي صلى الله عليه وسلم في ذي القعدة، فأبى اهل مكة ان يدعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على ان يقيم بها ثلاثة ايام. فلما كتبوا الكتاب كتبوا: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، قالوا:

« لا نقر بهذا لو نعلم انك رسول الله ما منعناك شيئاً ،ولكن انت محمد بن عبدالله » فقال: انا رسول الله وانا محمد بن عبـــد الله ثم قال لعلي : امح رسول الله ، قال علي : لا والله لا امحوك ابداً ، فأخـذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب – وليس يحسن يكتب – فكتب : هذا مـا قاضى محمد بن عبد الله لا يدخل مكة السلاح الا السيف في القراب، وان لا يخرج من اهلها باحد ان اراد ان يتبعه ، وان لا يمنع من اصحابه احداً ان اراد ان يقيم بها . (البخاري ج ٥ ص ٧٩ – ٨٠) ...

والروايات الثلاث التي نقلناها عن «الصحيح» بالحرف تتفق على مايلي:

١ – ان النبي كان احـد الطرفين اللذين عقدا باسمهما معاهدة صلح الحديبية .

٢ – وان علي ابن ابي طالب كان الكاتب الذي أمليت عليه هـذه المعاهدة فكتبها .

٣ – وان رسول الله أمره – بعد ما كتب لقب رسول الله –بامحائه نزولاً عند رغبة مندوب قريش .

٤ – وان علياً لما استنكف عن حذف « رسول الله » اخذ الرسول الصحيفة منه .

الى هنا تتفق الروايات الثلاث اتفاقاً تاماً ... غير ان الرواية الاولى تنفرد بالقول بان النبي ، لما اخذ الصحيفة من علي محا لقبه ... بينما تسكت الروايتان الأخريتان عن ذلك ، ولكن يرد على هذا ان الامحاء مفهوم ضمناً وان سكت عنه وذلك بكتابة النبي اسم ابيه مكان لقبه .

وتنفرد الرواية الثالثة عن الاوليين باستدراكها عبارة « وليس يحسن يكتب » ...

وتتفق الروايتان الثانية والثالثة – كما يفهم من ظاهرهما – على ان

النبي ، بعد ما اخذ الكتاب من علي كتب نص الصلح جميعه ...

وبما تقدم يثبت عندنا امران اولهما : ان النبي : محا بيده لقبه وهو « رسول الله » بما يدل على معرفته لهذه الاحرف ...

وثانيهما : كونه كتب بيده نص معاهدة صلح الحديبية .

ولما كان هذا الصلح قد وقع في ذي القعدة سنة ست للهجرة ٦٢٨م، ولم يثبت انه كتب قبل هذا التاريخ ، فمن المؤكد انه كتب لاول مرة وعمره ٥٨ سنة تقريباً ...

تعليقاتنا

ومهما كان الخيال قوياً وسيعاً في تصوير هذه الحادثة ، فان هناك امراً لا شك فيه ، وهو ان هذه الكلمات التي محاها رسول الله ، هي فاتحة الاتفاق وليس هناك شيء قبلها ، وهي كلمات معدودة لم تكن تتعدى السطر الواحد، واذا كان الامر كذلك، فليس ما يمنع ان يكون رسول الله قد محا السطر المكتوب كله ، بعد ان تجافى الكاتب عن محو اسم رسول الله ، واعاد الصحيفة بعد ذلك للكاتب ، ليكتب الاتفاق على الصيغة الجديدة التي صار الاتفاق عليها ...

كما انه ليس هناك ما يمنع ان يكون رسول الله قد تعلم كتابة اسمه وغير اسمه ، في هذه الفترة التي قضاها في المدينة ، خصوصاً ونحن نعلم ان رسول الله قد حثّ المسلمين على طلب العلم ، وكان من جملة ما اشترطه على الاسرى ان يعلموا اولاد المسلمين الكتابة والقراءة، فلماذا لا يكون رسول نفسه قد تعلم القراءة اسوة بغيره من المسلمين ... خصوصاً وان هناك نصوصاً تؤكد ان رسول الله كان يقرأ ويكتب قبل وفاته ...؟

واما الاسانيد التي تدل على ان رسول الله كان يقرأ قليلاً قبل وفاته ،

وانه كان يعرف الحروف وحسن تصويرها ، وينتقد كتابه اذا لم يحسنوا هذا التصوير ... فقد جمعها الاستاذ محمد عبد الرحمن الكتاني في كتابه « التراتيب الادارية او نظام الحكومة النبوية » فقال :

اولا — خرّج الحافظ السيوطي في آخر « طبقات اللغويين والنحاة » حديثاً مسلسلاً عن زيد بن ثابت كاتب الوحي قال : قال رسول الله، اذا كتبتم بسم اللهالرحمن الرحيم ، فبيّن السين فيه ...

ثانياً — ورد في « صبح الاعشى » نقلاً عن محمد بن علي المدائني ... وساق بسنده الى انس بن مالك ان معاوية بن ابي سفيان كان يكتب للنبي ، فكان اذا رأى من النبي اعراضاً وضع القلم في فيه ، فنظر اليه النبي وقال : يا معاوية : اذا كنت كاتباً فضع القلم على اذنك فانه اذكر لك ولي . وزاد في « الفيض » قال عياض : وفي هذا وشبهه دلالة على معرفته صلى الله عليه وسلم حروف الخط وحسن تصويرها ...

ثالثاً — قال القاضي في « الشفاء » اثر حديث : « ضع القلم على اذنك » ... هذا مع انه صلى الله عليه وسلم كان لا يكتب ولكنه أوتي علم كل شيء حتى وردت آثار بمعرفته حروف الخط ثم حسن تصويرها . كقوله في الحديث الذي يروي عن معاوية انه كان يكتب بين يديه ، فقال له الق الدواة ، وحرّف القلم واقمم الباء وجرّس السين، ولا تعوّر الميم،وحسّن الله،ومدّ الرحمن وجرد الرحيم..»

رابعاً — جاء في « سمط الجوهر الفاخر » : كتب صلى الله عليه وسلم بيده كتباً لاهل الاسلام في الشرائع والاحكام منها كتابه صلى الله عليه وسلم في الصدقات ، كان عند ابي بكر ، وكتابه صلى الله عليه وسلم في نصاب الزكاة وغيرهما الذي كان عند عمر ، وكتابه صلى الله عليه وسلم

الى اهل اليمن في انواع من الفقه وابواب مختلفة وهو كتاب جليل واحتج الفقهاء كلهم بما فيه من مقادير الديات ...

خامساً — ذكر الحافظ بن دحية كما في «خصائص القطب الخضيري» .. عن عمر بن شيبة : ان مما استدل به « الباجي » ومن وافقه — على مقالته كون النبي كتب بيده يوم الحديبية — ما اخرج ابن شيبة عن عبدالله بن عتبة بن مسعود قال — ما مات النبي حتى كتب وقرأ ... قال عجالة ، فذكرت ذلك للشافعي فقال : صدق قد سمعنا قوماً يذكرون ذلك...

سادساً — قال المناوي في « فيض القدير « على حديث : ضع القلم على اذنك» فهو اذكر للمملي ، واخذ القاضي من قصة الحديث انه صلى الله عليه وسلم كتب بعد ان لم يكن يحسن الكتابة ، ثم انه اشار الى مذهب الباجي ومن عارضه قال : « وانتصر له بان الامية لا تنافيه بل يقتضي تقييده بالنفي بما قبل ورود القرآن ، وبعد ما تحققت اميته وتقررت معجزته لا مانع من كتابته بالتعليم فتكون معجزة اخرى . »

وروى ابن شيبة عن عوف : ما مات صلى الله عليه وسلم حتى كتب وقرأ ...

وهذه النصوص والاسانيد جميعها لا تؤيد حجة من يقول بان رسول الله كان يكتب ويقرأ بكل ما في الكلمة من معنى ، وانما تدل على ان رسول الله كان يحسن كتابة اسمه مثلاً ، وانه كان يعنى بكتابة البسملة عناية خاصة ، دون ان تكون عنايته شاملة لغير ذلك من الوان الكلام .. ويؤيد ذلك النص الاول والثاني والثالث ، اذ ليس فيها إلا اشارة لحروف البسملة ، واما لغيرها فلا ...

واما النص الرابع فيرده ما عند البخاري وسنن ابي داود والنسائي وابن ماجه ، ففي هذه المصادر ان ابا بكر كتب لانس وختم الكتاب

بخاتم النبي ... وقد ساق الحديث مالك في موطأه ، واما قولهم كتب النبي كذا ، فلا يدل على انه كتب ، ولكن على انه امر بالكتابة ، كما هو الواقع والمفروض .

واما النصان الخامس والسادس ، فليسا من القوة بحيث يطمئن الباحث المعاصر الى ان رسول الله كان يحسن الكتابة او القراءة ، او تجاوز ما قدمناه سابقاً من انـــه كان يحسن كتابة اسمه وما يساوق اسمه من حروف وجمل ...

وهذا الرأي هو ما ذهب اليه الحافظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » فانه على رواية « ما مات النبي حتى قرأ وكتب » فقال : وما المانع من جواز تعلم رسول الله يسير الكتابة بعد ان كان امياً لا يدري ما الكتابة؟ فلعله لكثرة ما املى على كتاب الوحي وكتاب السنن ، والكتب الى الملوك ، عرف الخط وفهمه ، وكتب الكلمة والكلمتين ، كما كتب اسمه الشريف يوم الحديبية « محمد بن عبدالله » . وليست كتابته لهـــذا المقدار اليسير مما يخرجه عن كونه اميا ككثير من الملوك الذين كانوا اميين ويكتبون العلامة ...

— ٧ —

السياسة الخارجية

في مكة والجزيرة العربية

○

ليس من شك في ان الذي لفت اهتمام البلاد المجاورة ، للجزيرة العربية وتجارتها العظيمة ، سواء اكانت هذه التجارة تصدر عن اليمن قبل انحطاطها او عن مكة قبل الاسلام ، هو هذه الثروات الطائلة التي كانت ترد الى صندوق الامبراطورية البيزنطية والدول المجاورة ، من مكوس البضائع التي كان يحملها التجار العرب الى امصار الامبراطورية والبلاد الاخرى .

وكانت الحياة العربية من حيث مظاهرها المادية ، معلقة بالغزو او التجارة ، فالعربي كما قدمنا في فصول سابقة ، كان إما تاجراً او غازياً ... ولكن الامم الاجنبية ، خصوصاً التي اتصلت منها باليمن اول عهدها بالحضارة ، والظهور على مسرح التاريخ القديم كانت تنقل عن هذه البلاد انباء غريبة تدهش الناس وتثير منهم الآمال والاحلام ، خصوصاً ما كانت تنعم به اليمن من اليسر والرخاء والذهب والاموال الوفيرة .. مما حمل ساسة البلاد الاجنبية المجاورة على التفكير تفكيراً جدياً بالاستفادة من هذه البلاد ، واستثمار خيراتها طوعاً او قسراً ...

ومن المؤكد اليوم ان الاسكندر المقدوني كان اول من فكر في غزو الجزيرة للاستفادة من خيراتها وذهبها ... ولكنه توفي قبل ان يتمكن من تحقيق احلامه ... وانتقل هذا الحلم منه الى الامبراطور اوغسطس الروماني ... واشار الى هذا الطموح الشاعر الروماني هوراس

في قصائده ، فقال : « ان هذه الامم المشهورة بتجارتها وثروتها وغناها واحجارها الكريمة ، قد وعد الامبراطور الرومانيين بان يجعل اصحابها من اصدقائه او تحت رحمته ... »

ولذلك كان العرب امام احـــد امرين ... اما القبول بالاستعمار الروماني المبطن بالصداقة او الحرب ، وقد تقبلوا الامر الثاني طبعـاً ، فارسل الامبراطور احد قواده على رأس قوة الى اليمن ففشل وارتـد مدحوراً ... وفكر نيرون بعده باقتحام الجزيرة والحبشة معاً ، ولكنه لم يتمكن كما يظهر من تنفيذ فكرته هذه بصورة عملية ، واما في القرن الثاني الميلادي فقد سحق الامبراطور تراجان دولة النبط العربية في بترا ، وكان الاباطرة الذين سبقوه يستخدمون اهلها في حروبهم ، وكان عمل تراجان هـذا خطأ عسكرياً عظيماً ... وقد جرب خلفاؤه من بعـده اصلاح هذا الخطأ ، فانشأوا امارة عربية هي دولة الغساسنة ، واقاموها على الحدود السورية لمراقبة ماولا الحيرة صنائع الفرس ، ولرد الغزاة من البدو عن حدود الامبراطورية الشرقية ... ولتكون مقدمـة للتوسع الروماني في الجزيرة ايضاً ...

ولكن الامبراطورية الرومانية لم تكن وحدها في هـــذا الميدان السياسي العسكري ... فقد كان هناك الفرس وكان هناك الاحباش ، وكان لكل من هاتين الحكومتين مصالح عظيمة في الجزيرة ، وكان الفرس في الوقت نفسه يقفون حاجزاً منيعاً بين رومية والشرق ، وليس تاريخ الستمائة سنة مسيحيـة التي سبقت ظهور الاسلام إلا وصفاً للعراك الدامي بين الدولتين الكبيرتين ، حول طريق الهند ، هـذا الطريق ، الذي كان ، وما يزال حتى يومنا هذا سبب كل المشاكل العالمية ..

وكان الغساسنة وكلاء القياصرة لدى شيوخ العرب ، وكانت جلق

من منازلهم في الشام [1] ، وكان عليهم ان يحافظوا على الحدود السورية من عدوان البدو ، وان يقوموا بدور الوسيط بين الامبراطورية وعرب الجزيرة ، ولكن الفرس ما لبثوا ان خلقوا امارة الحيرة في العراق ، وكانت هذه الامارة من قبيلة بني لخم ، ووضعوها تحت نفوذهم ، وكلفوها بالمهمات التي كلف فيها الباطرة الرومان الغساسنة ... فراحت امارة الحيرة تحمي الحدود الفارسية ، وتعمل على تعزيز النفوذ الفارسي في الجزيرة وبين القبائل العربية ، كما راحت تحمي القوافل الفارسية التي كانت تأتي الى الجزيرة في ايام الموسم فتبيع وتشتري وتعود رابحة غانمة ..

وانشأ اللخميون ملوك الحيرة المراكب في الفرات ، وتحدث عن هذه المراكب وعن النهر شعراء العرب الذين قصدوا الحيرة لامتداح ملوكها واخذ جوائزهم ، كالنابغة ولبيد وطرفه وحسان بن ثابت ، واصبحت الحيرة مع الايام بلداً تجارياً عظيماً ، وسوقاً عظيم الخطر يقصدها القرشيون وسكان الطائف [2] ، واصبحت مثل بصري وغزه في الخطورة وذيوع الصيت ..

واما سياسة الحيرة الخارجية فكانت الوصول الى سورية والبحر المتوسط ، بينما كان الغساسنة ومن ورائهم الباطرة القسطنطينية يحاولون الوصول الى اسواق الهند ، عن طريق العراق ... ومع ان احداً من الفريقين لم يوفق في اغراضه هذه ، فان الخطط التي اتخذوها والسبل التي تكلفوها للوصول الى اغراضهم كانت سياسية وعسكرية معاً ، فقد توسلوا بالسياسة لاجتذاب شيوخ القبائل وشعراء العرب النابهين الذين

---

(١) لله در عصابة نادمتهم يوماً بجلق في الزمان الاول
حسان بن ثابت

(٢) الاغاني .

كانوا يسيطرون على الرأي العام العربي في ذلك العهد ، كما حـــاولوا اقتحام الجزيرة غير مرة بالسيف فلم يوفقوا ..

هذا وصف موجز لموقف الفرس والرومان في شمالي الجزيرة ، واما في جنوبها ، فان الحالة السياسية في اليمن كانت مؤسفة مضطربة قلقة ، مما دعا الحبشة الى احتلالها في اواسط القرن السادس الميلادي... فذهب بعض اهلها الى كسرى الفرس يسألونه المعونة والتأييد ضد خصومهم وخصومه ، لان الاحباش كانوا ينعمون بعطف اباطرة القسطنطينيـة ، وسبب ذلك انهم كانوا من المسيحيين ، والقسطنطينية كانت تمثـــل المسيحية في ذلك العهد وتعد نفسها حامية المسيحيـــة في العالم ، فامدهم ببعض الجنود فاجلوا الاحباش عن اليمن ، وكان عمل الفرس هذا مؤيداً لسياستهم الخارجية ، التي لم يكن من مصلحتها ان تسمح للاحباش ومن ورائهم الرومان بالتمركز في طريق الهند ، لان احتلال اليمن يسمح للمحتل بمراقبة البحر الاحمر والسيطرة عليه ، واقفاله في وجه خصومه متى شاء واراد ، خصوصاً اذا كان ينعم بقوة بحرية متفوقة ..

وهناك ظاهرة ثانية ، وهي رغبة رؤساء الكنيسة المسيحية في نشر الدعوة في البـلاد العربية ، فقد ارسل هؤلاء الرؤساء دعاتهم الى الحيرة ونجران من ارض اليمن .. [1] يدعون اهلها الى اعتناق المسيحية ، التي هي دين الدولة البيزنطيـة كما هو معروف ، وكذلك نرى ان القسطنطينيـة وعلى رأسها اباطرة الرومان البيزنطيين كانوا يعملون المستحيل ، ويتكلفون مختلف الطرق والاسباب لتحسين علاقاتهم مع البلاد العربية عن طريق الدين والسياسة معاً ...

وهنـاك مصادر اخرى تدل على وجود بعض الرعايا البيزنطيين في

« ١ » كوين دي برسيفال .

مكة والمدينة ، اوائل القرن السابع الميلادي ، وكان هؤلاء من التجار، ولا يبعد انهم كانوا من السوريين ، ولكننا لا نعتقد ان شأنهم كان خطيراً ، او انه كان لهم شأن ...

وقد عرضنا في الفصل السابق للعلاقات السياسية التي تكلفتها قريش مع الحيرة وزعيم بصرى وملوك الغساسنة وغيرهم، كما رأينا كيف ان الحياة الاقتصادية التي كان يحياها هـــذا النفر من قريش قد جعلت منهم جماعة من التجار البارعين ، بل زادت ندى فجعلتهم سياسيين محنكين واداريين بارزين ، واهلتهم للقيام بالاعباء الجديدة العظيمة التي كانت سوف تلقى على عاتقهم بعد ظهور الاسلام ..

ولقد مرّ التاريخ الاسلامي بثمانية واربعين ساعة من اخطر الساعات التي مرّ بها في كل تاريخه ... وذلك بعد وفاة رسول الله واختـــلاف المهاجرين والانصار على الخلافة ، ومن يتولى امرها... ولو ظفر الانصار بها ، وليس فيهم من هو صاحب سياسة ولا مقـدرة ، ولا دهاء ، لظل الاسلام في ارضه ، ولصعب عليـــه ان يتبسط فيما حوله من الامصار والبلاد، ولكن ظفر رجال من قريش بها وهي القبيلة النابهة البارعة قد بدّل الامر ، ووطد الاحوال ، واعاد كل شيء الى نصابه ، وسلم امور الجماعة الاسلامية الى من يحسن التصرف بها وادارتها على الوجه الاكمل والاحسن ...

ذلك ان هؤلاء الجماعة من القرشيين كانوا قد مرنوا عـلى اساليب الادارة والاتصال بالناس ، وكانوا اصحاب نظر ودهاء وسياسة وحذق وبراعة ، كما تشربوا روح الرسول وأخلاقـه ، فأحسنوا مسايرة النـاس ومصانعة الجماعـــات ، فخرجوا والحالة هذه يختلفون عن رجال عصرهم اختلافاً عظيماً ، كان له اثره في رفع رجال عصرهم الى مستواهم واعدادهم

للفتوح العظيمة المقبلة التي قام بها رجال قريش والتي بدلت الارض غير الارض، وخلقت هذه الامبراطورية العظيمة التي امتـــدت من مشرق الارض الى مغربها في سنوات معدودات ...

— انتهى —

فهرس الكتاب

صفحة

كلمة المؤلف ٢

قبل ظهور محمد ٣

الانساب العربية ١٧

الحياة الاجتماعية والدينية ٣٣

مكة وتاريخها قبل الاسلام ٤٩

هل كان محمد امياً ٨٠

السياسة الخارجية في مكة والجزيرة العربية . . . ٨٨

يصدر قريباً

١ — السياسة العسكرية عند العرب

وهو كتاب يصف الفن العسكري الذي اتبعه العرب في فتوحاتهم في فجر الاسلام وبعده ..

٢ — كفاح هتلر

كتاب للمؤلف نفدت طبعته منذ سنوات ، وسيعاد طبعه مجدداً بحلة جديدة وبعد كثير من التبديل والتحوير والتعديل ...

٣ — ثلاثة كتب في تاريخ الامبراطورية الاموية .

٤ — اربعة كتب في تاريخ الامبراطورية العباسية .

وهذه الكتب ستعرض لتاريخ الاسلام عرضاً جديداً في كثير من الطرافة وحسن التصوير ، وبحث الحالة الشعبية والتجارية والاقتصادية والسياسية مما في تلك العصور الزاهرة ..

٥ — الاعوام

مذكرات للمؤلف .

٦ — عبدالله بن الزبير ومملكته

وغيرها من الكتب التاريخية والادبية والروائية

انتهى طبع هذا الكتاب وتجليده في الخامس والعشرين من
شهر تشرين الاول سنة ١٩٤٩ على مطابع دوطوس في بيروت